

يتناول هذا الكتاب تطور وضع العرب من القرن الثالث الميلادي إلى قيام الدولة العربية الإسلامية...

لقد كانت الدول الساسانية والرومانية والحبشية، وإن بدرجات متفاوتة، هي القوى العظمى طيلة هذه الفترة... غير أن الحروب المتواصلة بين الساسانيين والرومانيين ثم البيزنطيين انتهت في القرن السابع إلى حالة تزيف ذهب يقوى القوتين العظميين جمِيعاً ورافق هذا التزيف حيرة عقدية رشحهما إلى ما يشبه النزع الأخير في حين شهد العرب في ذات الوقت ولادة وحدة قومية دينية مكتنهم من ملء هذا الفراغ العالمي فأسسوا لهم دولة عربية إسلامية دامت ثلاثة قرون...

محمد الناصر النفراوي

فارس بيزنطة ولجزيرة العربية من القرن الثالث إلى القرن السابع



محمد الناصر النفراوي
أستاذ مساعد بكلية الآداب و أفريل بتونس ..
صدر له:
- رواية "المتشابهون" ، دار الحوار (سوريا 1987).
- "محمد كرد علي، المثقف و قضية الولاء السياسي" ، دار الجنوب (تونس 1993) .

السعر 3.200 دت

ISBN: 9973-703-46-4

دار الجند للنشر - قرمدش

محمد الناصر النفراوي

كتاب في تاريخ العرب والآشوريين
من القرن الثالث إلى القرن السابع

فارس، بيزنطة ولجزرية العربية من القرن الثالث إلى القرن السابع

دار العلوم للتراث - تونس

كتابات عوالق إلى الثالث العلامة

القدمي

يتناول هذا الكتاب تطور وضع العرب من القرن الثالث الميلادي إلى قيام الدولة العربية الإسلامية أي هذه الفترة التي عادة ما يقع طمسها في البرامج الدراسية في ظهر التاريخ العربي وكأنه وليد القرن السابع الميلادي والحال أن أحداث هذا القرن ليست إذا ما نظر إليها بمنظار التاريخ الإنساني الضارب في القدم غير أحداث البارحة.

لقد كانت الدول الساسانية والرومانية والحبشية وإن بدرجات متفاوتة هي القوى العظمى طيلة هذه الفترة تمثل أولاهما المعسكر الشرقي وتمثل ثانيتها باعانتها من المعكسر الغربي وكان وضع العرب بينها من ناحية وضع التابع لهذه القوة أو تلك ومن ناحية أخرى وضع الشتات المحكوم بالصراع القحطاني العدناني بل بالصراع الداخلي حتى ضمن هذه التصنيفات العربية الفضفاضة مما يمكن معه القول لو كان بإمكان التاريخ أن يعيد نفسه إنّه صورة لوضع العرب نهاية القرن العشرين.

غير أن الحروب المتواصلة بين الساسانيين والرومان ثم البيزنطيين انتهت في القرن السابع إلى حالة تزيف ذهب بقوى القوتين العظميين جمِيعاً ورافق هذا التزيف حيرة عقدية رشحتهما إلى ما يشبه النزع الأخير في حين شهد العرب في ذات الوقت ولادة وحدة قومية دينية مكتنهم من ملء هذا الفراغ العالمي فأسسوا لهم دولة عربية إسلامية دامت ثلاثة قرون.

© - جميع الحقوق محفوظة لدار الجنوب للنشر

SUD EDITIONS

نهج فلسطين، 1002 تونس

الهاتف: 179-785/991

ISBN: 9973-703-46-4

الإشارة إلى أن القارئ سيلاحظ ما من شك في ذلك الاختلاف الواضح بين ما أوردنا من بعض التواريخ وبين ما هو متداول في كثير من الكتب. وسبب ذلك واضح فالفترة موضوع الكتاب مازالت لأسباب عديدة في حكم ما قبل تاريخ بعض الشعوب الأخرى. لذلك عمدنا إلى نوع من "المفاضلة" بين تواريخ تظهر أحياناً في كتابات المختصين (مثال دائرة المعارف الإسلامية) غالية في التباعد.

يطلق المؤرخون الغربيون على القرون الثالث والرابع والخامس الرومانية عبارة "الامبراطورية الدنيا" Bas Empire وهي تشبه في الحضارة العربية فترة حكم المطیع والطائع في القرن العاشر المنسمة بتفتت الحكم المركزي وغلبة العناصر غير العربية على العنصر المؤسس للدولة الأصل ولذلك يمكن تعريتها بـ"عصر الانحطاط".

وقد يبرر اتجاهنا هذا النهج في المقارنة أن الفترتين تعداداً فترتي انحطاط عند دعاه القومية الغربية والعرب على حد سواء. وإذا كان هناك اختلاف بين العرب والغربيين حول المسألة فهو يقتصر على الديانين من الطرفين ذلك أن فترة الانحطاط الرومانية مكنت المسيحية من الانتصار في حين يربط الديانيون المسلمين فترة الاشراق السياسي والديني بثلاثين سنة من القرن السابع الميلادي أي بفترة التحام العروبة بالاسلام التأسيسي التحاماً كاملاً. وما ذلك في نظرنا إلا لطابع الدين الاسلامي الاول الذي يستحيل فيه، رغم أشكال "الاجتهاد" المختلفة الفصل بين الدين والدولة. لذلك سوف نقتصر لاظهار الشبه بين ما يسمى بفترة الانحطاط الروماني والعربي على الآراء القومية عند العرب والغربيين دون سواهم رغم أن القوميين العرب الكلاسيكيين يورخون لبداية الانحطاط بحكم المعتصم (833-840). كتب الامير مصطفى الشهابي في أواخر ستينيات القرن العشرين:

هبة هواء فيموت. وهكذا تحدث قومي غير عربي عن فساد العنصر السوري فنسب إلى إمرأة خراب امبراطورية كاملة، وما أقرب هذا التفكير من تفكير من نسب إلى فار خراب سد مأرب.

إن أحضر ما يعبر عنه الموقفان العربي والغربي هو هذا الحديث عن "هوية" وعن "خصوصية" تشبهان الثوابت أو المعاني المطلقة رغم أن كل شيء في حياة القوم يثبت في كل لحظة تهاوت مثل هذه المفاهيم.

إن مصدر هذه المواقف لا يمكن أن يكون غير ردود الفعل التي لا تعرف غير الجموح حتى عندما تحمل "العقلانية". فصاحب كتاب "امبراطوريات سوريات" كان حتى وهو يؤكّد على سعة اطلاع "جوليا دومنا" التي مكتتها إما مباشرة أو بطريق المطالعة من النفاذ إلى فلسفة أوريجينوس الاسكندرى (254-186) وتريليان القرطاجي (155-222) لا يكف عن حصر مجالها الفكري في دائرة التقبل إذ كيف يقوى عقل "سوري" على الابتكار؟

إن في التاريخ فترات تبدو أشباه ما تكون بحالات الكسر تنهار فيها قيم قديمة ولا تتمكن القيم الجديدة من الاستقرار في صلب التفكير البشري بالفرع.

ففي بدايات القرن التاسع عشر اتجهت الحروب النابليونية "فتحة" Fichte الألماني فكان حريا على قيم الثقافة الفرنسية ولغتها، وفي أعقاب الحرب العالمية الأولى ظهر من الكتب المؤبنة للحضارة الغربية ما لا يشهده غير ما ظهر بعد الحرب العالمية الثانية. وفي تسعينيات هذا القرن عقب انهيار المنظومة الاشتراكية حالة من "الفرع" لا يستطيع المرء أن يتباًأ من الآن إن كان بإمكان الانسانية الخروج منها بسلام.

مثل هذه الحالات عرفها القرن الثالث الميلادي فقد تخشب المجتمع الروماني وتختَر إلى حد دفع مثقفي العصر إلى البحث عن بدائل جديدة فاتسع مجال الغنوصية وانتشرت المسيحية أكثر مما كانت عليه في القرنين السابقين. ولم تنبع الامبراطورية الساسانية من حالة الشك هذه فظهور النبي "مانى" (قتل عام 276) يدعو إلى دين جديد يعوض المزدية-الزرادشتية. وحول الامبراطورية الرومانية والامبراطورية الساسانية كان يتمحور أكبر جزء من العالم القديم.

وغلط المعتضم العباسي غلطه المشهورة فأدخل في جنده عدداً كبيراً من علماء الأتراك فأدى ذلك إلى استبدادهم بالحكم وإلى ضعف الخلافة وضياع سلطان العرب حتى في بلادهم أي البلاد السامية العراق، العربية اللسان والثقافة.¹

وكتب سامي الكيالي في الفترة ذاتها:

اعتلَفَ الْأَخْوَانُ الْأَمِينُ وَالْمَأْمُونُ عَلَى الْحُكْمِ فَاسْتَنْصَرَ الْمَأْمُونُ الْفَرَسَ عَلَى الْعَرَبِ جَنُودَ أَخِيهِ، وَقُتِلَ الْأَعْاجِمُ الْأَمِينُ (...). وَكَانَ الْمَعْتَضِمُ، أَخُو الْمَأْمُونِ، يَشَاهِدُ هَذَا الْإِنْقَلَابَ السَّرِيعَ الْعَجِيبَ وَيُشَاهِدُ تَطَوُّلَ الْفَرَسِ بَعْدِ مَصْرَعِ الْأَمِينِ، فَرَاعَهُ أَنْ "تَمَثِّلِي الْمَوْسِى إِلَى ذَقْنِهِ" وَهُوَ فِي ارْتِقَابِ الْخَلَافَةِ، تَاهِيكَ أَنَّهُ قَدْ أَرَضَ طَبَاعَ الْأَتَرَاكِ مِنْ أَمْهِ الْتَّرَكِيَّةِ حَتَّى نَشَأَ لَا يُؤْمِنُ بِالْعَرَوَةِ (...). فَرَأَى أَنَّ يَسْهُدَ سَاعِدَهُ بِيَسِّيْ خَوْلَسَهُ (...). فَمَا أَنْ بُوَيْعَ حَتَّى أَسْرَعَ يُولَفَ جِيشًا مِنَ الْمُرْتَقَةِ الْأَغْرَابِ وَلَا سِيمَا مِنَ الْفَرَغَانِيِّينَ وَالْأَتَرَاكِ.²

أما جان بايلون Jean Babelon فقد كتب متحدثاً عن اخلال الحكم الروماني الاغريقي في القرن الثالث الميلادي عندما ارتقى عرش روما الامبراطور الليبي سيبتيموس سيفيروس (193-211) الذي شاركته زوجته السورية الاصل جوليا دومنا (158-171) الحكم:

عندما نرى جوليا دومنا تتحذل لنفسها حاشية من المثقفين وتحادل الفلاسفة يمكننا أن نجزم أن هذه الأفضال العقلية ليست ابتكاراً وأنها لا بد أن تكون لها أساساً صلبة في رأس تمرست مدة طويلة على النظر العقلي بفضل البيئة التي عاشت فيها بحيث يمكننا أن تتبنى الخطوط الأولى لدراسة مجالها هذه المواجهة وهذا الصراع بين التقاليد الآسيوية العكرة والغامضة وبين الديالكتيك الاغريقي النيرة التي طعمتها البراغماتية الرومانية. إن هذا هو ما يمكن تسميته ثار الساميين المتأخر من الثقافة الكلاسيكية.

إن سوريا جوليا دومنا وهي تتحذل بافريقيا سيبتيموس سيفيروس كانت اليد التي حققت هذه الغلبة المشئومة التي ذهبت تنتائجها بامبراطورية أغسطس وتراجان. لقد تعمدت ابنة باسياموس Bassiamus العمل بذلت ومتبرأة على إنجاز عملية التفكيك متسترة بعتمة الاشراقية الشرقية الغامضة.³

هكذا تحدث قوميان سوريا عن فساد العنصر التركي الاسيوي فسبوا إليه سبب انحطاط العرب وكأنه يكفي أن يتعرض جسد قوي للدغة زنبور أو

1- مصطفى الشهابي، القومية العربية، القاهرة، 1969، ص. 37.

2- سامي الكيالي، الأدب والقومية في سوريا، القاهرة، 1969، ص. 66.

3- Jean Babelon: Impératrices syriennes, Paris, A. Michel, 1959, p. 37.

ایلاجلابوس، تخلیداً لاسم إله سامي في حمص، وحده اسكندر سفروس الذي ولد في عرقاً-لبنان وهو آخر وأعظم امبراطور من هذه العائلة.⁵

ويتحدث بابيلون في غيظ عن آثار هذا الامتزاج الذي لم يقتصر (وهذا أمر طبيعي) على الأجناس بل تعداه إلى اللغة والمثل السياسية والعسكرية حتى ضمن الطبقة الحاكمة:

كانت لغة عائلة الامبراطور الجديد الأم ولعنته هو كذلك اللغة البونيقية أي هذه اللغة التي لا تربطها صلة من الصلات باللغة اللاتينية، زد على ذلك أن هذا اللسان ذاته تحريف نتيجة اندماج طويل في الأهالي الليبيين. ولقد أشار سالليست Salluste عند حديثه عن يوغورطة إلى هذه اللغة المحلية المصطبة بالبربرية. ومن ناحية أخرى فإن سيفيروس قد يكون صرخ اثر احتفال أقيم على قبر حبيعل الذي بني عليه حسب زيتريز Tzetzes نصباً من المرمر تخلیداً لأعظم رجل حرب في العصور القديمة⁶، أنه يعبر نفسه تمجيداً للقائد القرطاجي الذي تكفي ذكره وحدها لإثارة هلع الجمهورية.

فالاحتلال الجنسي واللغوي والفلسفـي إنما كان نتيجة توسيع دولة كان الحكم فيها مخصوصاً في نواة عرقية ضيقـة ثم أصبحت أطرها القديمة عاجزة عن استيعاب وتأطـير هذا التوسيـع. كذلك سيكون وضع القرىشيين من بني هاشم وبعد شمس يوم تتبع دولتهم العربية الإسلامية أكثر مما كان بامكانها أن تمثل من أجناس ولغات وفلسفـات. فـما يسمـى بالانـحطـاط الروـمـاني في القرن الثالث والانـحطـاط العـربـي الـهاـشـميـ العـبـشـيـ بعد ثـلـاثـة قـرـون من قـيـامـ الدـولـةـ العـربـيـةـ إـنـماـ هوـ أـمـرـ طـبـيعـيـ.

على أن أهم ما يمكن أن يدحض رأي القائلين أن العامل الخارجي مثلاً في غلبة أجناس أجنبية على الأمم هو سبب اخـلال الدول لا إـحدـىـ نـتـائـجـ هـذـاـ الانـحلـالـ هوـ تـجـربـةـ الدـولـةـ الـبـارـثـيـةـ الـتيـ اـسـسـهـاـ مـهـرـدـادـ Mithridate الأولـ فيـ القرنـ الثـانـيـ قبلـ المـيـلـادـ. وـسـقـطـ بـعـدـ حـكـمـ دـامـ أـرـبـعـةـ قـرـونـ تـحـتـ ضـربـاتـ أـرـدـشـيرـ السـاسـانـيـ فيـ الثـلـاثـ الـأـوـلـ منـ الـقـرـنـ الثـالـثـ (224). لقد قـامـتـ هـذـهـ

5- فيليب حتى: خمسة آلاف سنة من تاريخ الشرق الادنى، بيروت 1975، ص 175.

6- بابلون، المرجع السابق، ص 60.

أما على المستوى السياسي فقد غلت العناصر غير الرومانية على الدولة الرومانية وكثـرتـ حالـاتـ سـيـطـرةـ العـسـكـرـيـنـ عـلـىـ السـلـطـةـ، وـلـمـ يـقـصـرـ الـامـتـزـاجـ عـلـىـ الـاجـنـاسـ فـقـطـ حتـىـ يـمـكـنـ تـفـسـيرـ الـانـحطـاطـ الـرـوـمـانـيـ عـنـصـرـيـاـ، بلـ شـملـ الـدـينـ وـالـلـغـةـ أيـ كـلـ أـنـشـطـةـ الـحـيـاةـ. كـتـبـ بـابـلـونـ حـولـ ذـلـكـ:

في زـمـنـ آـتـاحـ لـنـاـ تـبـيـنـ الشـرـوخـ الـأـوـلـيـ المـبـيـةـ بـخـرـابـ رـوـمـاـ نـرـىـ فـيـ تـوـلـيـ الـأـفـرـيـقـيـ سـيـتـيمـوسـ سـيـفـيرـوسـ الـحـكـمـ ثـارـ الـرـوـحـ السـامـيـةـ الـقـدـيـمـةـ مـنـ رـوـمـاـ الـتـيـ دـاـسـتـ هـذـهـ الـرـوـحـ بـالـاقـدـامـ وـرـدـاـ مـنـ الـقـدـرـ عـلـىـ لـازـمـةـ كـاتـونـ "Dalenda carthago" Caton (ولكم في تدمير قرطاج حياة).

إن العائلة الليبية-السورية ستحتكر عرش الامبراطورية الرومانية في روما مع ابني سيفيروس سيفيروس وجوليا دومنا وهمما الاخوان الخصمـانـ كـارـاكـالـاـ (217-211) وجـيـتاـ (211-212) وكذلك مع ايلاجلابوس Elagabal (الجبل) (218-222) حـفـيدـ جـوليـاـ مـيزـاـ Julia Maesa دومـناـ وـمعـ اـسـكـنـدـرـ سـيـفـيرـوسـ (222-235). كـتـبـ فيـلـيـبـ حتـىـ مـنـتـصـراـ لـهـذـهـ الـعـاـئـلـةـ السـوـرـيـةـ الـأـفـرـيـقـيـةـ الـتـيـ حـكـمـتـ رـوـمـاـ طـبـلـةـ نـصـفـ قـرـنـ:

تـمـتـعـتـ أـمـ كـرـكـلاـ، وـاسـمـهـ جـوليـاـ دـوـمـناـ بـكـيـرـ مـنـ الـمـوـاهـبـ وـالـجـمـالـ، وـهـيـ اـبـنـةـ رـئـيسـ الـكـهـنـةـ فـيـ هـيـكـلـ سـامـيـ فـيـ حـمـصـ. وـقـدـ تـعـرـفـتـ إـلـىـ زـوـجـهـ سـيـتـيمـوسـ سـفـروـسـ عـنـدـمـاـ كـانـ قـائـدـ جـيـشـ فـيـ سـوـرـيـاـ. وـتـظـهـرـ عـلـىـ النـقـودـ الـتـيـ صـكـهـاـ سـيـتـيمـوسـ فـيـ جـزـءـ مـنـ هـيـكـلـ. وـهـذـهـ النـقـودـ تـشـبـهـ تـلـكـ النـقـودـ الـتـيـ صـكـهـاـ اـمـبرـاطـورـ رـوـمـانـيـ جـاءـ بـعـدـهـ هـوـ فيـلـيـبـ العـرـبـيـ (244-249) الـذـيـ كـانـ مـنـ أـصـلـ سـوـرـيـ وـولـدـ فـيـ قـرـيـةـ مـنـ قـرـيـةـ حـورـانـ.

كـانـ جـوليـاـ تـفـاخـرـ بـالـلـقـبـ الـذـيـ لـقـبـتـ بـهـ (أـرـغـسطـ) أيـ العـظـيمـةـ الـجـلـيلـةـ، فـرـاحـتـ تـعـاـونـ زـوـجـهـ فـيـ إـدـارـةـ الـحـكـمـ، وـبـعـدـ مـوـتهـ تـسـلـمـتـ دـفـةـ الـحـكـمـ وـادـارـتـهـ بـعـدـهـ فـاتـقـةـ كـمـاـ أـظـهـرـتـ حـنـكـةـ زـوـجـهـ بـرـزـتـ بـهـ حـنـكـةـ زـوـجـهـ وـادـارـتـهـ. وـكـانـ عـنـدـهـ مـسـتـشـارـ قـرـيبـ لـهـ اـسـمـهـ بـابـيـانـ، كـانـ حـقـوقـيـاـ بـارـزاـ وـأـسـتـاذـاـ لـلـقـانـونـ فـيـ مـدـرـسـةـ الـحـقـوقـ فـيـ بـيـرـوـتـ (بـيـرـيـتوـسـ). وـقـدـ ضـمـ مـجـلسـ جـوليـاـ الـمـورـخـينـ وـطـلـابـ الـحـكـمـ وـغـيـرـهـمـ مـنـ رـجـالـ الـعـلـمـ أـمـيـالـ الطـيـبـ الـأـغـرـيـقـيـ الشـهـرـ جـالـيـوـسـ. وـبـعـدـ وـفـاتـهـ تـسـلـمـتـ الـحـكـمـ أـخـتهاـ الصـغـرـىـ الـتـيـ فـاقـتـهـاـ قـدـرـةـ، إـنـهاـ جـوليـاـ مـيزـاـ، جـدةـ

4- المرجع السابق ص 59.

وكانت قبائل مصر مع ذلك بل وسائر العرب أهل بغي والحاد وقطع للأرحام وتناقض في الردي واعراض عن ذكر الله وكانت عبادتهم الأوثان والحجارة وأكلهم العقارب والخنافس والحيات والجلاعن وأشرف طعامهم أوبار الابل إذا أمروها في الحرارة والدم.⁹

إن هذه العلاقات الاجتماعية (البغى وقطع الأرحام والتناقض في الردي ووأد البنات) قد عبر عن روحها شاعر ينتمي إلى هذا الصنف هو زهير بن أبي

سلمي الرياحي بقوله:
يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم
ومن لا يند عن حوضه بسلامه

لقد كانت تلك العلاقات علاقات أقوام لم تتمكن بعد، على عكس ما كان عليه الإيرانيون والرومان وحتى القحطانيون، من بلوغ طور نشوء الدولة بما يلائم مثل هذا القصور من نظرية إلى الأشياء تتسم بالتجزؤ البالغ (عبادة الأوثان والحجارة التي يوافق عددها تعدد القبائل تماماً كما يوافق الوحدانية براحلها المختلفة تقلص القبلية ومركزية متزايدة للدولة) لأن بيضة القوم المادية لا تسمح لا بنشوء الدولة ولا باقامة علاقات اجتماعية على غير ما عرفوا منذ أقدم العصور. ولذلك فلن يكون للعذانيين شأن إلا يوم يذلون مع قيام الدولة القصور. وفي ذلك يكتنوا أكثر الناس ضراوة في محاربة دعاتها، بيضة بيضة العربية الإسلامية، التي كانوا أكثر الناس ضراوة في محاربة دعاتها، بيضة بيضة يتتحولون من بيتهما الأصلية إلى بيضة جديدة (الشام وببلاد الرافدين، الخ) فيكونون في ذلك بدؤهم ونهايتهم. ومن لم يفعل ذلك منهم فقد بقي حتى نهاية القرن العشرين على ما كان عليه أجداده قبل قيام الدولة العربية الإسلامية. أما عن الصنف الثاني أي القحطانيين فقد كتب ابن خلدون:

ولم يكن في العرب ملك إلا في آل المنذر بالحيرة للفرس وآل جهينة بالشام وفي بيبي حجر (من كندة) على مصر والمحاجز.¹⁰

ويفسر اختصار الملك قبل قيام الدولة العربية الإسلامية في القرن السابع في القحطانيين بنوع الحياة التي كانوا يعيشون. وهي إن لم تكن مناقضة تامة

9- عبد الرحمن بن خلدون، كتاب العبر، ج 3 ، بيروت 1977، ص 104.

10- المرجع السابق، ص 704.

الدولة في خراسان⁷، ولذلك يطلق عليها بعض المؤرخين اسم الامبراطورية البارثية (L'empire parthe) ثم توسيع في فترة ما فهيمنت على الأضبة الإيرانية جميعها الموزعة اليوم سياسياً إلى الدول الثلاث فارس في الغرب وافغانستان في الشمال وغرب باكستان في الجنوب الشرقي أي ما يسمى "بلوشستان".⁸

هذه الدولة بدت في الثلث الأول من القرن الثالث أشبه ما تكون بالجسم المفكك الأوصال يتقاسمها الأقطاعيون ورجال الدين الجموس. ولولا الضعف القاتل الذي كانت عليه الامبراطورية الرومانية في هذه الفترة لأمكنها أن تذهب بخصومها القديم. ففي السنة التي كان فيها كاراكلا في روما يجهز على أخيه وشريكه في الحكم حيناً (212)، كان أردشير، حفيد ساسان وابن بابك Pabhagh الذين انفرد بيتهما بوظيفة كبير القائمين على خدمة معبد النار باصطخر، يتمدد على ملك مقاطعة اصطخر ويضم إليه شيئاً فشيئاً مقاطعات ملوك الطوائف المخوارة ليتغلب في نهاية هذا المطاف السياسي الديني على ملك ملوك الطوائف نفسه، أردوان الخامس سنة 224 ومؤسس دولة ساسانية لنتمكن من القضاء عليها بعد عمر امتد حمدة قرون غير الدولة العربية الإسلامية.

إن حالة التحلل الداخلي التي وصفنا لم تكن محصورة في القوتين العظميين الشرقية والغربية لذلك العهد بل كانت تشمل العالم القديم جميعه ومن ضمنه بلاد العرب الواقعة بين المطرقة الإيرانية والسدان الروماني والتي إذا كانت تتحدد جغرافياً بـ"العربية"، فهي سكاناً وأمماط عيش لا يمكن أن تفهم إلا باعتماد التصنيف السسيولوجي (بدو/حضر) الذي ليس في نهاية التحليل غير تعصير للتصنيف السلالي التقليدي عدنان/قطحان.

يقول ابن خلدون الكندي القحطاني في الصنف الأول منهما:

7- تعني بالفارسية الشرق (Khvarasan) أما الغرب فهو (Fehr)

Raymond Furon, : Iran, Perse et Afghanistan, Paris, Payot, p. 5. - 8

إن وظيفة الوزير (الرَّدْف) في مملكة الحيرة قد تكون ارثاً في عائلة بني يربوع تعويضاً لها عن التنازل عن المطالبة بعرش الحيرة. وبهذا يكون النظام الإليرياني قد تجاوز الحدود المعقولة وما كان ذلك ليحصل إلا في دولة صغيرة كدولة الحيرة تقع تحت رقابة إمبراطورية كبيرة وفي حمايته¹⁴.

ولقد كان منصب الرِّدَافَةُ هذا بما يوفره من مكانة اجتماعية "لليرابع" من تميم ومن منافع اقتصادية حريّاً بأن يربط بين تميم البحرينين برباطوثيق:

فالرِّدِيفُ يجلس على يمين الأمير إذا شرب ويردهف إذا ركب ويخلفه إذا غزا. وكانت له أتاروة على كل من في طاعة الأمير. وكان بني يربوع التميميون يفخرون بأنهم أرداد الملوك.¹⁵

هكذا تقطعت السياسة الساسانية منذ قيام الدولة الجديدة في الثلث الأول من القرن الثالث إلى الخطر العربي الكامن فمنع أردشير القبائل الأزدية واللخمية النازحة من اليمن إلى الحيرة التي كانت تخضع للحماية التدمرية "استقلالاً ذاتياً تالفاً للعرب وتأميناً لسلامة بلاده التي كان البدو لا يفتاؤن يشنون عليها وعلى القوافل التجارية غاراتهم. ومن ثم تحولت المخيمات إلى الحيرة مدينة العرب يقوم عليها جذيمة الأبرش (التنوخى) كأمير نائب عن الملك الفارسي أردشير¹⁶. وبذلك ربط الساسانيون اللخميين برباط ولاء دائم ونظموا علاقاتهم بهم تنظيماماً مكملاً فكان تاج الإمارة للخميين ومنصب الرِّدِيفِ (الوزير) إرثاً في بني يربوع. أما البحرين التي ستضم إلى الإمبراطورية الساسانية زمن سابور الثاني (310-379) فسيحكمها حاكم عربي يعينه ملك الحيرة على أن يستعين بأحد كبار الموظفين الساسانيين. ويقيم في البلاط الساساني بصورة دائمة مكلّف بالشؤون العربية وبالترجمة يتقاضى مرتبه من ملوك الحيرة¹⁷.

14- المرجع السابق، ص 104.

15- أحمد مختار التجار، علاقة أمراء الحيرة بعرب شبه الجزيرة كما يصورها الشعر، القاهرة 1979، ص 85.

16- المرجع السابق، ص 26.

17- Christensen, Arthur: L'Iran sous les sassanides, Copenhagen, 1936, p. 82.

لما وصف من حياة العدنانيين¹¹ (لاستحالة التناقض المطلق في كل ما يحيط يصلة إلى حياة البشر المجاورين خاصة) فهي أقرب إلى الاستقرار في الأرض بكل ما يعني ذلك من توفر ظروف نشأة الدولة أو على الأقل بنورها الأولى وما يتبع ذلك من مؤسسات يصعب الحديث عنها عندما لا يتتوفر حد أدنى من ظروف الحياة المادية.

هكذا يدو وضع القحطانيين شيئاً فشيئاً إذ هم أكثر حضارة من العدنانيين لذلك ملوكوا عليهم، وهم أقل حضارة من الأمم المجاورة لذلك قاموا بدور الحزام الواقي لهذه الأمم من غزوات من سيصيّبون "أحوتهم" منذ هجرتهم إلى المدينة القحطانية واختلاط المهاجرين العدنانيين بالأنصار القحطانيين.

لقد كان أردشير وهو يوسع إمبراطوريته يلامس في الآن نفسه المنطقة العربية الخطيرة التي كان الرومان قد ضمّنوا فيها منذ مدة ولاء الإمارة التدمرية. أما أردشير فلم يكن له فيها ولاء عربي مضاد يحقق التوازن بين المسکرين قريباً من مصب دجلة "الذي كان يهيمن عليه إذاك عرب جاؤوا من عمان هم الرواد الذين مهّدوا الطريق للقبائل العربية التي ستسقّر في الحيرة غرب الفرات على ما يدو عند نشأة الدولة الساسانية بالضبط¹². نقول ستسقّر لأن أردشير سيرى في هؤلاء العرب اليمتّين وسيلة يمكن أن تقى حدود الإمبراطورية الساسانية من غزوات البدو في نجد والخليل:

نشأت حوالي هذه الفترة في ما وراء نهر الفرات الذي يتجه في هذه المنطقة نحو دجلة ويقترب منه حتى مسافة 50 كيلومتراً مملكة عربية خاضعة لامبراطورية الساسانية هي مملكة الحيرة التي ستصبح سورياً يقي الإمبراطورية من غزوات البدو الرحيل¹³.

هذه الإمارة كانت تحتاج لقيام دورها إلى عون من القبائل في المنطقة فتخبر لها من ضمنها بني يربوع واسندت لهم وظيفة الرِّدَافَة:

11- المرجع السابق ص 524.

12- Christensen, Arthur: L'Iran sous les sassanides, Copenhagen, 1936, p. 82.

13- المرجع السابق، ص 90.

كتب فيليب حتى عن زنوبيا بلهجته التمجيدية كلما تعلق الأمر بالعرب الشوام
خصوصاً:

قبضت على زمام الحكم بيد من حديد فنظمت البلاط على نمط بلاط ملوك الفرس وأحاطت نفسها بكل مظاهر الألهية والحملات وادعى أنها تمت بصلة النسب إلى شبيهها كليوباترة المصرية. لقد تعهدت زنوبيا الحضارة الاغريقية ورعت اللغة اليونانية التي درستها على يد أستاذ فلسوف شهير اسمه لوبيجنيوس الذي أصبح فيما بعد مستشارها. وبعد أن بسطت سلطتها على جميع أنحاء سوريا وشالي الجزيرة العربية والجزء الشرقي من بلاد ما بين النهرين، حشدت جيوشها ووجهتها نحو مصر، حيث أقامت في مدينة الإسكندرية حامية تدمرية ثم اتجهت نحو الاناضول وتولغت داخل البلاد إلى أن بلغت أنقرة. وفي نسخة انتصاراتها أعلنت الغاء الوصاية الرومانية على بلادها وأعلنت استقلال مملكتها استقلالاً تاماً ولقبت نفسها بالعظيمة "أوغسط".¹⁸

لقد خلف سقوط تدمر سنة 273 فراغاً كبيراً كان لا بد أن تملأه كيانات سياسية قحطانية بديلة ولذلك فقد شهدت المنطقة جميعها قيام توازنات جديدة. ففي جنوب الجزيرة تأسست في اليمن الدولة السبئية الثانية حول الملك (شهر يهرعش) بين 274 و 310 الذي تلقّب بملك سباً وذي ريدان وحضرموت ويمنة رمزاً منه إلى توحيد مجموعة الإمارات اليمنية المتناحرة وتصدياً للحبشة التي تعاقبت غزواتها على اليمن بداية من عام 281. أما اللخميون فكانوا أكبر المستفيدين من انهيار تدمر.

لقد ناصر اللخميون الساسانيين في حربهم ضد أذينة سنة 260 وإذا كان الساسانيون قد منعوا بهزيمة في هذه الحرب فإن الحيرة فقدت مؤسس الإمارة فيها جذيمة الملقب بالأبرش. وعندما خلفه في الحكم ابن اخته عمرو بن عدي (273-260) كانت فكرة الثأر من التدمريين شاغلة الأول وهذا هي تدمر تسقط في أيدي الرومان الذين حولوها إلى أثerr بعد عين في الوقت الذي ملك فيه في الحيرة أمير القيس بن عدي (328-274) هذا الذي مد سلطانه مستغلاً الفراغ على مناطق شاسعة تفتقّد من الحيرة إلى بحران كما أثبت ذلك نقش على

18- فيليب حتى: خمسة آلاف سنة... ص 180.

إن هذا الارتباط السياسي التوخي (أزد-لخم) ومن ثم التميمي بالساسانيين هو الذي يفسر استقرار الملك في هذه القبيلة العربية القحطانية منذ عهد أردشير في القرن الثالث إلى عهد كسرى أبوريز الذي سيقتل النعمان بن المنذر في مطلع القرن السابع الميلادي وهو الذي يفسر استماتة اللخميين في الدفاع عن أولياء نعمتهم من الساسانيين.

هذه السياسة الساسانية التي تمثل في اتخاذ العرب القحطانيين رعداً واقياً للحدود الساسانية لم تظهر بجاعتتها قبل الثلث الأخير من القرن الثالث بسبب نفوذ مملكة تدمر الطموحة. فقد بلغ من شأن هذه الامارة (المملكة) أن استغلت فترة انتقال الحكم في إيران من أيدي البارثين إلى أيدي الساسانيين وما صاحبها من صعوبات داخلية وكذلك وضع الرومان الصعب في النصف الأول من القرن الثالث ليدي أميرها أذينة سيبتموس (قتل عام 267) طموحه إلى الاستقلال بمنطقته وتوسيعها. وعندما اندلعت الحرب بين سابور الأول (272-241) وفاليريان (253-260) سنة 260 وانتهت بغلبة سابور وأسر الأمبراطور الروماني في مدينة الرها، انضم أذينة إلى الرومان واعتراض طريق عودة سابور وألحق به هزيمة ثقيلة وأجبره على التراجع حتى ما وراء الفرات وسيطر على نصبيين وسوريا وكلّ المناطق الرومانية في آسيا الصغرى فمنحه الأمبراطور غاليان (253-268) لقب "الثاني" في الشرق لقاء تبعية شبه صورية لروما ولن تنجح محاولات الساسانيين حتى سنة 265 في الفتّ من عضد تدمر.

إن أذينة سيقتل سنة 267 وقد يكون لزوجته باث زينينا (زنوبية) عند الرومان والزياء عند العرب ومعنى ذلك عند البعض ابنة العطاء وعند البعض الآخر ابنة التاجر) ضلع في قتله. وستتولى زنوبية الحكم مشركة ابنها "وهب الالات" في تسيير شؤون الامارة فتلتقطب هو بلقب أغسطس إعلاناً منه عن الاستقلال التام عن روما (271) وتعقد أمه حلفاً مع سابور فيثيران غضب الأمبراطور الروماني الجديد أورليان (270-275) فيهجم بقواته على تدمر ويأسر الملكة لتحمل إلى روما فتموت بعد عام من المهزيمة (274).

لوحة قبره فوق جبل الصفا قرب دمشق عثر عليه المستشرق الفرنسي رينيه سنة 1921 وهذا نصه بالنبطية نقلًا عن الحجار:

تي نفس مر القيس بر عمرو ملك العرب كله ذو اسر التج وملك الأسدین ونزر
ولموکهم وهرب مد حجو عکدی وجایزجی في حجج بخون مدیست شمر وملک
معد ونزل بنی الشعوب وزکلهم فرسو لروم فلم ببلغ ملك مبلغه عکدی، هنک
سنة 223 يوم بکسلول بلسعد ذو ولده.¹⁹

323

وسنة 323 بتاريخ مدينة بصرى توافق 328 للميلاد. هذا النقش يسمى نقش التمارة وهو يفيد انه حاصر بحران عاصمة شمر السبعي كما أنه ملك العرب كلهم وخص أسدًا ونزاراً ولم يذكرهم بالذكر ليفيد اتساع ملکه وقوته سلطانه التي أحضعت قبائل معد وبعض قبائل الجنوب إلى جانب محاصرته بحران، وكان عليه أن يوزع بنيه ملکه هؤلاء وقد فخر بأنه لم يبلغ ملك مبلغه²⁰

إن ما يجب ملاحظته هو أن هذا الأمير البحري سينضم لأسباب لا إجماع عليها إلى الرومان ضد الساسانيين فقد هذه العائلة العرش لمدة غير محددة مما أحاط تاريخ اللخميين في القرن الرابع بالغموض. على أن ذلك لا يغير من الصورة العامة للمنطقة وهي صورة الجزيرة العربية المطورة بقوتين واحدة قحطانية والأخرى إما ساسانية أو رومانية وفي أحشائها كانت القبائل العدنانية أساسا لا تعرف للواقع الحربية بداية ولا نهاية.

2006/8/17
الفصل الثاني

أزمة الضمير في الشرق والغرب حتى سنة 313.

حكم أردشير الأول، مؤسس الدولة الساسانية (224-241) وأبنه وخلفيته سابور الأول (241-272) ايران مدة تقارب النصف قرن واعتمدا في حكمهما على مركزية صارمة ودين للدولة هو المزدية يقمع كل حيد عنه. هذه المركزية السياسية وهذه الطاعة الدينية تعبّر عن المرتبة الاجتماعية التي رأى فيها الحكم الساساني الجديد أساسا للمجتمع الايراني والتي تكون كالتالي:

- 1- كبار رجال الدين الجحوس (Magiens) ومن هنا أطلق المسلمون على المزدية اسم الجحوسية.
- 2- العسكريون من الفرسان لا من المشاة الذين هم من أصل قاعدي.
- 3- الكتاب.
- 4- الفلاحون والصناع.¹

لقد كان الجحوس يمثلون القادة الروحيين للمجتمع الايراني والحفظة اليقطين لدين الله "هرمزد" (مزده) كما حددته زرادشت النبي الأفغاني الأصل في القرن السابع قبل الميلاد في الكتاب المقدس (Avesta) الذي يسميه المؤرخون العرب "كتاب الزمرة" وفي ما أضيف إليه من شروح وتفاسير (Zand) وهو الرندة عند العرب.

Christensen, L'Iran sous les Sassanides, p: 93.-1

19- النجار، المرجع السابق، ص 28.

20- المرجع السابق، الصفحة نفسها.

غير أن وظيفة كبار رجال الدين لم تكن تقتصر على الجانب الديني فحسب بل كانت تتعداه إلى تعليم أبناء الطبقات العليا عقائد المزدية ونوع السلوك الذي يجب أن يسلكوا. كل ذلك انطلاقاً كما ذكرنا من الكتاب المقدس (أفستا

وشروحه للذين كانوا يعتبران المصدر الأوحد لكل علم وسلوك.

لقد كان الجموس يضططعون بدور أساسي في المجتمع الایرانی لا يكاد يفتأمه إلا دور الفرسان النبلاء الذين كانوا يکونون نواة الجيش الایرانی الصلبة ولا يتلقون للقيام بوظيفتهم لا راتباً ولا عدة إذ كانت صفة الفارس وحدها علامه نبل في هذا المجتمع المتعلق بالمرتبية إلى حدّ أن القوانین فيه كانت "منع على أفراد الشعب شراء ممتلكات النبلاء"²، وتفرض على النبلاء مظاهر تميزهم عن العامة "في المراكب والملابس والمساكن والحدائق والنساء والخدم"³.

لقد كان الجموس وطبقة النبلاء الاقطاعية يمثلون دائماً في هذا المجتمع مثالاً لللحمة المصلحة الطبيعية. ولقد حرص منشئ الدولة الساسانية الجديدة على أن يبقوا على هذا الوضع بل أن يدعموه أياً دعم ثقة منهم على الأقل في هذه الفارة بقوة دولتهم. غير أن مثل هذا الوضع جعل كل ثقل الدولة وحاشياتها يقع على كاهل القاعدة الاجتماعية المكونة من الفلاحين وأساساً والذين عليهم:

1- أن يخدموا الأرض ولا يقربوا ثمارها قبل أن تطاها يد الضرائب الطويلة.

2- أن يحاربوا تحت إمرة الفرسان الاقطاعيين حتى وإن كانوا دالعاً في حالة أجمع المؤرخون القدماء على أنها كانت مثالاً للتعasse.

3- أن يدفعوا الضرائب التي كان القانون يعفي منها النبلاء والفرسان ورجال الدين والكتبة وكل من هم في خدمة الشاهنشاه.

إن المجتمع الذي ارتضاه مؤسس الدولة الساسانية هو مجتمع يرى في الطاعة أساس الفضيلة ويرى في قبول المرء بمكانته الاجتماعية الموروثة مقاييس للصلاح. ومثل هذا الوضع لا بد للإبقاء عليه من دين مثل الأساس النظري والفلسفى له

2- المرجع السابق، ص 313.

3- المرجع السابق، الصفحة نفسها.

ويضفي عليه صفة الشرعية الأخلاقية. وهنا لا يخفى دور المزدية التي حرص أردشير على أن يجعل منها ديناً رسمياً للدولة السياسية المترامية الأطراف في تمتين مركزية الدولة الناشئة.

فالدين المزدي يتمحور حول إله كوني غير مخصوص بشعب من الشعوب، خالد لأنّه سابق لكل المخلوقات، خير لأنّه لا يمكن أن يصدر عنه الشر. وتبعاً لذلك فكل تحليات هذا الإله الخير كالهواء والنار والنور والماء والمعادن يجب أن تخضع بالتقديس.

إن تأثير المزدية بـ"شمش" البابلي يبدو واضحاً من خلال تقديس بعض عناصر الطبيعة التي ذكرنا وكلها عناصر ترتبط بالشمس ولذلك فهي ضرورية لحياة الإنسان على الأرض فتقديسها إنما هو في نهاية الأمر تقدير للخصب والحياة (أي الخير) ودفع للموت المشوش للحياة والذي يرمز إليه بـ"الظلمام" لا في المزدية فحسب بل في تراث شعري يمتد إلى اليوم في مختلف الحضارات. غير أن عناصر الطبيعة الخيرة لا توحد على الأرض صافية بل في حالة احتلال وتلوّث وهذا يعني أن المزدية لا تعتمد أي ثنوية في تفسير الأشياء كنسبة الخير إلى السماء والفساد إلى الأرض والصفاء إلى الروح والذكر إلى الجسد أي هذه الثنوية التي ستوّع الفلسفة والديانات التي تبنّتها في تشاءم قاتل. فهي ترى مثلاً في الزهور التي تنبت في الأرض عناصر من السماء كالماء والنور ومن هنا كان الواجب الأسنى عند المؤمنين أن يقاوموا عناصر الفساد والظلمة التي تلوّث كل شيء في الطبيعة والانسان تغليباً لعناصر الخير والنور. ويوم تغلب عناصر الخير والنور بذلك هو يوم الخلاص. وأما قيمة الإنسان فهي تتحدد بقدر سعيه إلى تغلب أحد طرف الصراع على الطرف الآخر. نحن إذا لستنا بإزاء ثنوية تقوم على تضاد كلّي ومتعادل بين الخير والشر إذ أن هرموزد فوق كل شيء وإذ أن عناصر الشر والخير والظلمام والنور والفناء والخلود مبنوّة في كل شيء فلا مجال للقول عند المزدين ان الأرض مصدر كل شرور وأن العالم الأمثل في السماء إذ في الأرض الظلمة والنور على حد سواء. هذا هو الفرق بين المزدية والثنوية المانوية والغنوصية عموماً. إذن نحن إزاء دين لا يقود إلى التشاءم حتماً ويرفض

فعل المؤمن المزدي أن يصلى للشمس أربع مرات في اليوم وعليه أن يصلى للقمر وللنار وللماء. عليه أن يقيم الصلوات عند النوم وعند القيام وعندما يغسل ويتنبّط (أي يشد نطاقه) وعندما يذهب لقضاء حاجته، وعندما يعطس وعندما يقص شعره وأظفاره وعندما يشعّل قناديل، الخ.

عليه أن يحرص حتى لا تنطفى النار في المنزل وحتى لا يسقط ضوء الشمس على النار وحتى لا يلامس الماء النار وحتى لا تتصدأ المعادن إذ المعادن مقدسة. أما الاجراءات الضرورية لظهورها من ملس جثة أو امرأة في فترة الحيض أو في حالة ولادة وخاصة إذا أحجهضت ولیدها فهي على غاية من الارهاق والازعاج.⁴

إن الظاهر الأكثر تعقيداً في هذا الدين الذي يكاد يختنق معتقداته - في نظرنا اليوم على الأقل - بما قنن من مرتبة وما ضبط من طقوس تهيمن على حياة المؤمنين، هي العلاقات الجنسية بين الأقارب.

لقد كان المجتمع الإيراني مجتمعاً يعدد فيه الذكور الزوجات ويقتن مراتب كل واحدة منهن في العائلة وهذا أمر يكاد يكون طبيعياً في المجتمعات القديمة ولكن الدين المزدي يقر بالزواج بين الأب وأبنته وبين الأم وابنها وبين الأخ وأخته بل أنه يبيح للرجل الزوج أن "يفرض إحدى زوجاته لرجل آخر من دينه إن لحقه عوز اضطراري".⁵ وقد لا يكون هناك تفسير لهذه الظاهرة إلا في معاداة المزدية لكل أشكال العزوبة التي ليست في نظرها مظهاً من مظاهر الحياة بل هي مرادف للقطح وبذلك تدخل ضمن الصفات التي تمثلها الروح الشريرة، روح الظلمة. إن المسيحيين المعاصرین للدولة الساسانية والذين بلجأ البعض من مفكريهم إلى وجء نفسه قتلاً للغرائز الجنسية فيه⁶، وكثيراً منهم إلى العزوبة إخلاصاً منهم لدين المسيح، سوف يستهجنون إنما استهجان سلوك المحسوس الجنسي وكذلك سوف يفعل المسلمون بعد أربعة قرون. ولكن القضية تحتاج إلى فهم ينطلق من دين المحسوس ذاته ذلك أنهما قد اشتهروا بالاستماتة في الحفاظ على صفاء الدم الإيراني مما تفسير سلوكهم الجنسي إن لم يكن موافقاً لهذا التفسير الذي قدمنا؟

-4 Christensen ، المرجع السابق ص 116.

-5 المرجع السابق، ص 324.

-6 مثال على ذلك أوريجينوس (254-186)

التزهد لأن في الزهد موقفاً رافضاً للحياة والحال لأن في الحياة جانبها من النور يجب تعزيزه. نحن إذن عليه أن يبذل جهداً تجريدياً أكثر حتى يتزع عنده قدرًا أكبر من المادة ليتحقق بالدينات الأخرى.

لا شك أن القضية التي تستعصي على الفهم هي مكانة الروح الشريرة التي تبث الفساد والظلم في الكائنات. إن هذه الروح الشريرة لا ترقى إلى مستوى الإله لأن هرمزد وحده هو الله كما أنها ليست منه لأنه آله خير، وإن ما مصدر هذه الروح؟ هنا لا تجحب المزدية عن هذه المسألة بالوضوح المطلوب بل تكتفي باقرار مخالطة الظلمة لكل شيء (وكانها تكتفي بلاحظة ما يحدث في الكون) وتكتفي بالدعوة إلى مقاومتها نصرة للروح الخيرة التي مصدرها هرمزد.

إن المزدية وهي توكل على فكرة تواجد الخير والشر معاً على الأرض تبرر اقتصادياً وسياسياً الملكية وتبتعد إيماناً ابتعاداً عن المسيحية التي تقصل بين مملكة قيسار وملكة الله. وأن المزدية تبرر شرعية الحكم على الأرض بما فيه من مرتبية صارمة ، فقد اضطررت تبعاً لذلك إلى تعديل القىود الاجتماعية والدينية فأصبحت الطقوس التي يجب على المؤمن المزدي أن يرعاها كثيرة بل مكبلة. فعليه أن يبذل جهداً كبيراً حتى لا يلوث العناصر الخيرة من هواء ونار ونور وماء. وهكذا فهو لا يحرق الموتى لأن في حرقهم تلويثاً للهواء وللنار على حد سواء، ولا يدفعهم لأن في ذلك تلويثاً للأرض وإنما يترك جثثهم العارية نهباً للطvierة الحارحة.

إن الأمر يصل عند المزديين حد اعتبار الاستحمام بالماء الساخن واحداً من الآلام إذ تحرم هذه الديانة تلامس (تماس) الماء والنار بل أن في الاستحمام بالماء ذاته إنما إذ أن هذا العنصر المقدس يتلوث بلمس الجسد. وفي هذا نظم الشاعر الحلبي أبو العلاء المعري مستغرباً من لا عقلانية الأديان:

عجبت لكسرى وأشیاعه وغسل الوجوه ببول البقر.

إن حياة المزدي تبدو إذن مقننة لا شيء فيها يترك للصدفة أو الاجتهاد:

لفارس وكان المسيح للغرب وها آنني نبي إله الحقيقة أحمل في هذا الزمن
الأخير رسالة الوحي وأبعث في بلاد بابل.⁸

يمكن القول إن المانوية تقوم على الإيمان أن "المبدئين الأصليين هما الله والحركة الفوضوية"⁹ التي تحكم العالم. فالله هو المبدأ الخير كما أن الشر هو هذه الحركة الفوضوية وبما أن الله خير فهو يتدخل لاعادة النظام إلى الحركة الفوضوية. هذا التدخل يقع بوسيلتين وعلى مراحلتين: فالله يبعث أول الأمر بروح منه إلى العالم. ولكن هذا الاختلاط يُنسى الروح أصلها ومصيرها فإذا هي أسيرة المادة. على أن حالة السقوط هذه ليست حالة نهاية فالروح في حالة بين الحالتين: حالة الأسر والنسيان وحالة توق كامن إلى الخلاص من هذا الأسر ولذلك فإن الله يبعث هذه المرة بقوة إنقاذ صادرة عنه (demiurge) تلامس الروح الالهية الغافية في الإنسان فتستيقن من غفوتها وتحتار الاندماج في العالم العلوى الأصلي وبذلك يتحقق نصر الخير مثلاً في الله وفي الروح المقدسة وفي الروح التي خلصت لطبيعتها الأولى بعد حالة الاختلاط على الشر مثلاً في الجسد والأرض.

من الواضح إذن أن المانوية تشتبّع بقراءة معينة للمسيحية. يظهر ذلك حتى في التثليث الذي وصفنا وإذا كان يطلق عليها صفة الثنوية والثنائية فذلك لمقابلتها بين الأرض والجسد والطبيعة من ناحية وعالم علوى صاف خالص وإن كان فيه ما فيه من التثليث.

هذا الاقتراب الشديد من المسيحية يدوّي ووضح من خلال تعاليم الدين المانوي وهي التي ستكون سبباً في قتل النبي ماني لأنها تناقض المزدية الزراداشتية. فالديانة المانوية إذا كانت قد راعت مستوى الناس العام ولم تضف إلى القيود الزراداشتية قيوداً حديدة تزيد من تكبيلهم ، فقد فرّضت على دعاتها المدعون إلى أن يكونوا قدوة للآخرين لا يمارسوا أي نشاط مادي يلحق ضرراً بالعناصر المقدسة وألا يتطلّبوا أي شيء في الحياة ينمّ عن تعلق بالجسد-المادة،

إن المزدية خلافاً للثنوية المانوية والغنوصية عموماً ترى في عالم المادة وفي الأرض بصفة خاصة صراعاً بين قوى النور والخصب والعطاء من ناحية وقوى الظلمة والجفاف والقطط من ناحية ثانية. وخصب الأرض الذي لا يختلف عن خصب الجسد هو غاية نشاط الفلاح الإيراني الذي عليه أن يقلص عنصرو الجفاف الذي يمكن أن يتلفها بل أن قبول الفلاح بدوره ك مجرد وسيلة لأخصاب الأرض (مفهوم الطاعة) هو ضرريته من أجل الخلاص وطريقه إلى عالم النور والخلود.

هكذا تتحلّي قيمة المزدية في تركيز الفلاح في الأرض ومدها بعدد متزايد من الخدمة ضمن مفهوم للطاعة يبقى على المرتبة الاجتماعية والسياسية ولسوف يعتبر النبي "ماني" في الثلث الأخير من هذا القرن وهو يدعو إلى مانوية ثنوية فيها الكثير من ملامح المسيحية، عنصر تخريب للدولة ونظام المجتمع فيه فيجمع المحسوس على امتحانه فيقتل سنة 276.

كانت عائلة "ماني" الهمذانية الاستقراطية الأصل قد استقرت في قرية تقع بين دجلة والفرات وينشط فيها إضافة إلى أتباع الدين المزدي السني، الديانيون المسيحيون والغنوصيون على حد سواء، وقد أحسن ماني (215/216) وهو يعاشر كل هذه الأديان أنه لا بد من تجديد ديني يأخذ من الزراداشتية ما يأخذ ويأخذ من المسيحية ما يأخذ. وأحسن أنه النبي المنتظر المدعو إلى تحقيق هذه الرسالة. هذا الاحساس تم كما كان يتم في كل الأديان بطريق الحلم أو الوحي إذ لا بد من رابطة بين الله والسماء وبين النبي والأرض وليس بإمكان مثل هذه الرابطة أن تنزل إلا خارج ما هو "طبيعي" و "عادي" وبواسطة ملك سماء ماني "الرفيق".⁷

وهكذا بدأت دعوته فدعا الناس إلى الإيمان به على أنه الروح القدس (Le Paraclet) الذي تنبأ المسيح بظهوره وبر ذلك "بأن أنبياء الله كانوا دائمًا هم حملة الحكمة يظهرون للناس من زمن إلى آخر فكان بودا للهند وكان زرادشت

⁸ م. س. ص. 179.
⁹ م. س. ص. 184.

Christensen -7 المرجع السابق، ص 177.

والحقيقة أن أفضل معبر عن هذه النزعة قد ظهر منذ قرون ونعني بذلك فيلوب اليهودي الاسكندراني (20 ق.م- 40 ب.م):

كان فيلوب يعبر كتب التوراة الخمسة¹¹ كتباً موحى بها من الله، ومثل هذا المبدأ كان مجھولاً لدى فلاسفة الاغريق. وفي الوقت ذاته كان فيلوب يقول بثنائية الإنسان (أنه مادة وروح) التي نادى بها أفالاطون وأن الجسد هو سجن الروح التي تتوق أبداً إلى الخلاص منه والرجوع إلى الله. والله في نظر فيلوب لا يعده عقل، وهو أسمى من كل معرفة. أما المادة فلها حدود ولها نهاية. ولذا وجب أن يكون هناك وسيط بين المحدود واللامتناهي. وهذا الوسيط بين الله وبين العالم هو "الكلمة" التي وصفها بأنها أول مولود لله: إنها الله الثاني.¹²

إن هذا الشاهد الطويل يلخص الأساس الذي ستتولد منه كل الخصومات الدينية اللاحقة. فهو يذكر لفظ الوحي (كتب موحى بها من الله) وينسب إلى الرعيم اليهودي موسى (القرن 13 ق.م) صفة الوعاء البشري المؤهل في أوقات حياته المادية لتقبل مضمون الهي مختلف عن المضامين العقلية المرتبطة بتجربة الإنسان الحياتية فيطرح بذلك مسألة طبيعة هذا المضمون ووسيلة تبليغ هذا المضمون ومتزلفها.

وقضية الوحي هذه قد شغلت المفكرين ذوي الأمزجة العقلانية منذ القديم إذ لا بد من التفريق بين كلام الأنبياء (وهم بشر) الذي يندرج ضمن الوحي ويكون فيه النبي مجرد وعاء مستسلم ومسلم وبين كلامهم البشري العادي الذي يكون نتيجة تفكير وثيق الصلة بالأشياء المعهودة التي تدعوا كل واحد من الناس إلى إعمال عقله فيها حتى يتمكن من التكيف مع الأشياء¹³. فالوحي يفترض حالة تقبل مطلقة أو حالة اسلام واستسلام يصبح معها التفكير

11- كتب التوراة الخمسة (Pentateuque) هي:

- 1 سفر التكوين (Genèse).
- 2 سفر الخروج (Exode).
- 3 اللاويين (Lévitique).
- 4 العدد (Nombres).
- 5 التثنية (Deutéronome).

12- فيليب حتي: خمسة آلاف سنة، ص 199.

Montgomery Watt: Mahomet à la Mecque, Paris, 1958, p. 80 - 13

فحرّمت عليهم امتلاك المال وأدخار ما يزيد عن حاجة اليوم الواحد من الطعام والسنة من اللباس وحرّمت عليهم الزواج وأكل لحم الحيوان والخمر وفرضت عليهم سبعة أيام صوم في الشهر الواحد وأربع صلوات في اليوم.¹⁰

هكذا اختلطت المزدبة بالملسيحية فأعطت المانوية الزاهدة. ولسوف ترى الدولة الساسانية في هذه الديانة (كما سترى في المزدكية الشيعية بعد قرنين) أكبر خطر على النظام الاجتماعي والسياسي فقتل نبيها سنة 276 وتحقق نصر الدولة ودينها الرسمي الزرادشتي على دين المعارضة السياسية الدينية. ونکاد نستغنى عن الاشارة إلى ضعف إمكانية تأثير دين كالمانوية على العرب شبه المستقرين في الحرية المحاورة أو على العرب البدو إذ تحول كل ظروف الحياة دون إمكانية تأثير مثل هذه الديانات الزهدية في قوم لا يسكنون المدن وتفرض عليهم حياتهم نفسها سطفا في العيش يفوق أحياناً ما يفرضه الزهد على المتزهدين. إن الزهد في الحياة تماماً كالزفاف بمظاهره المختلفة إنما هو ظاهرة مدينة بل هو في النهاية موقف من المدينة ولذلك فإن إرجاع ظاهرة الزهد والتصرف إلى الإيرانيين جميماً ومن دون تمييز أو تحديد لا يحتاج دحضه إلى مزيد بيان.

في المعسكر الروماني جدت أحداث في هذا القرن لا تقل جسامته عما حدث في المعسكر الشرقي، واشتهد تفكك العلاقة بين الدولة والمجتمع المتعدد الأجناس واللغات والثقافات بسبب تباعد الطبقات الاقتصادية واستماتة كل منها في التعلق بصالحها وإتجاه مثقفيها عن وعي أو عن غير وعي إلى صياغة نظريات تمنّ مواقعها المادية والثقافية. وفي هذا العصر كان مجال التنظير المهيمن هو الدين خاصة وأن الارسطوطالية التي هي أكثر أخذنا بالطبيعي والمادي والواقعي والجسدي والأرضي في الأشياء قد أضعفت ظروف الواقع الصعبة القائين بها فغلبت الافلاطونية بكل تفريعاتها وظهرت هذه النزعة التي نسبها بابلون في تعصبه على حولها دونها إلى إرادة ثأر سامية من "الديالكتيك الاغريقية النيرة التي طعمتها البراغماتية الرومانية".

10- المرجع السابق، ص 189.

الإنسان حتى ذقه في الوحل" أي على النشاط المادي والتفكير المرتبط بحياة هذه المملكة.

غير أن اعقد قضية إنما تمثل في كيفية ابتكاث وحي الله المطلق فيبشر العدو. بأي وسيلة يكون ذلك؟ بـ"الكلمة"؟ وبأي لغة؟ ولا لغة لله وكل لغة هي لغة بشرية أي محدودة وخاصة بأمة من الأمم. وما منزلة من يتقبل الوحي على إن كان ذلك في لحظات معدودات و مجرد تهيئته لتقبل الوحي يجعل منه بشراً متميزاً عن البشر.

هكذا نرى أن اختلاط الدين الموسوي بالفلسفة الأفلاطونية ابتعد بهذا الدين من حالة الفطرة (أي البساطة الملائمة لحياة البدو اليهود في القرن الثالث عشر قبل الميلاد) من دون أن يتحقق اجماع الديانين على هذه الفلسفة.

هذه الأزمة العقدية بدأت في الحقيقة من القرن الأول الميلادي بعد نهاية العصر الروماني الجمهوري (509-31 ق.م.) وانفراد أوكتافيوس (سنة 27 ق.م.) بحكم منطقة رومانية تتدلى على مساحة 3.000.000 كيلومتر² وتضمّ عدداً من السكان يتراوح حسب تقديرات مختلفة بين خمسين وخمسة ستمائة مليون وهو رقم ضخم بالنسبة إلى سكان الأرض آنذاك إذ لم يكونوا ليتجاوزوا المائتين وخمسين مليوناً ولم يكن بلد كالصين يعده أكثر من اثنين وخمسين مليوناً من السكان. من هذه الفترة وحتى سقوط روما سنة 476 تحت ضربات البربري الجermanي أودواكر Odoacre بدأت روما تسمى بالامبراطورية بكل ما تعنيه هذه الكلمة من تركيز السلط جميعها في يدي الامبراطور. وقد انتظم الخمسون مليوناً من السكان حسب هرمية تتوزع كالتالي:

- الامبراطور وأعضاء مجلس الشيوخ والقضاة المدنيون وكل هؤلاء كانوا حسب المعتقدات الرومانية على صلة بالآلهة يديرون شؤون الدولة بروح من المشتري.
- طبقة المحاربين حماة المدينة وناشري مجدها بروح من الله الحرب المريخ.

العادى الذي هو حركة دماغ يتعامل مع مؤشرات محسوسة عائقاً من عوائق التقبّل. ومن هنا كان ارتباط تجربة الوحي في الديانات السماوية (إذ توجد ضمن البشرية أعمّ لها ديانات غير ديانات الشرق الأوسط....) بحالات تعطيل في نشاط العقل العادى وحالات فراغ توصل الانبياء لتقبل حقائق مختلف عن الحقائق التي يتوصلون إليها في حالاتهم العادية بل حالات نوم تصل إلى حد ما تأثير الأحداث البشرية وتقسح المجال للرؤيا.

إن اعتبار فيلو كتب التوراة الخمسة كتاباً موحى بها من الله يعني أن النبي موسى كان في جمل اللحظات أو الدقائق أو الساعات الذي فرغ فيها ذهنه من كل ما هو مادي وشنّ تفكيره العادى ووعيه بالأشياء ومنها جسده كان في جمل هذا الوقت نبياً. أما في ما عدا ذلك من أوقات قد تقدّم 99 بالمائة من حياته فقد كان إنساناً يهودياً شبيهاً بأي كان من البدو اليهود إلا ما كان من هذا التمايز الطبيعي وبين فرد وفرد يتميّز إلى مجتمع واحد. أمّا ما سماه فيلو "الكلمة" أي "هذا الوسيط بين الله وبين العالم" فإن عبارة "أول مولود لله" لا يمكن أن تعبّر عنه بالتجريد المطلوب لأنّها تقرّبه من صورة البنونة المعهودة والحال أنه "الا ثان".

إن تهويد الأفلاطونية يتمثل في إحلال مضمون ديني مثالي محلّ المضمن الوثني المثالي الأفلاطوني أي تدين المضمون وستنشط الحضارة الغربية البرجوازية الحديثة في تدريب هذا المضمون المهوّد اجتهاداً منها لوضع جمل تاريّخ اليهودية والمسيحية في وضع الجملة الاعتراضية في التاريخ البشري. هذا التهويد للفلسفة شطر الإنسان نهائياً شطرين وسيدور الصراع العقائدي حول تضخيم الجانب البشري في المسيح أو تحجيمه. وفي فترات الأزمات الاقتصادية والاجتماعية كثيراً ما كان يهيم الداعون إلى تحويل حياة الإنسان جمّعها إلى ما يقترب من هذه اللحظات أو الدقائق التي رأينا كيف كان موسى يفرغ فيها من محتواه البشري ليتحول إلى مجرد وعاء مملأه الوحي أي "ملأه السماء". إن كل تضخم ديني ينجر عنه ضرورة إضرار بملكة الأرض التي تقوم على "غرق

دعاوه تهدىء أنس المجتمع الموروث إذ تقوم على قراءة جديدة لعلاقة الإنسان بالله وبالدولة وبالإنسان فرفعت قضيته إلى المسؤولين الرومان.

لقد تأكّد أن شروح التوراة الأكثر نفاذًا قد عجزت عن الاتيان باشارة حليّة إلى خلود الروح في التوراة. إن اليهودي يسأل عما يأتي هنا وعما يأتي الآن من أفعال، فإذا أخطأ فلن يعاقب أو يشعّ له في حياة أخرى يعلم الله ما هي. إن اليهودي، إذا كان مؤمناً وإن دعى الحاجة إلى ذلك، يدرك فحسب أن الرسالة التي يجب عليه أن يضطلع بها في هذه الحياة إنما تعزّ طابع هذه الحياة المقدس¹⁴

فليس في الموسوية عندئذ هذه النواة المولدة لكل أشكال الشعور بالذنب وكل أشكال الانشطار والحرّية يشل طاقات التمدد البشرية إن سكتت الإنسان. وهذا أن عيسى "يسير بقرب حلول يوم الحساب وبضرورة التوبة في انتظار الحساب وعدم حرمان أي تائب من الخلاص من هذه الساعة المشهودة"¹⁵ إن الدعوة إلى مملكة السماء تعني إن سكت النفوس دعوة إلى هجرة الأرض وتحولها من الموطنة إلى الأجنحة الدينية وتفضي إلى انشطار في الولاء: ولاء للدولة (الأرض) ولاء لله (السماء): هذا عندما يتمكّن الإنسان من تحقيق تعادلية صعبة كثيرة ما تكون مزعومة. أمّا إذا تضخم الولاء لله عند بعض المؤمنين فإن الحياة الحقة تصبح عندهم حياة الزهد في ما لا ينفع والتعلق بما لله. وذلك هو مضمون دعوة عيسى وذلك هو مضمون قول الشاعر العربي أبو العاتية: لِدُوا لِلْمَوْتِ وَابْنُوا لِلْخَرَابِ. لذلك قاوم عيسى من اليهود من رأوا في دعوته خروجاً عن دين موسى القديم الذي لا يتضمّن هذا القدر من الزهد وقاومه الرومان لأنّ جزءاً من ولاء المواطنين لقيصر سينتحول إلى الله أي أن جزءاً من ولاء المواطنين سينتحول من روما عاصمة الإمبراطورية إلى السماء.

لقد قاد تصوّر السلطة ورجال الدين التقليديين لتركيبة المجتمع الفضلى إلى ما رأينا من هرمية يتنزّل فيها الصناع والفلاحون منزلة القاعدة حتى لا تتحدّث عنّهم مكانة اجتماعية وها أن عيسى "لا يتحرّج (...)" من

- وفي القاعدة طبقنا الفلاحين والصناع اللتان توفران شروط الحياة المادية والفنية والتقنية للمدينة بوجي من Quirinus وإلى هذه الطبقة ينتهي التجار عيسى بن مريم زوجة يوسف.

أما القيسير أغسطس فتجمع في شخصه الوظائف الثلاث: إن مكانة القيسير شبه الالهية (ومن القياصرة من سيتايله) لا يفسّرها إلا عظمّة روما التي بلغت في عهد اوكتافيوس ما بلغت وستبقى كذلك طيلة القرنين الأول والثاني الميلاديين لتبدأ بالتناقص بدأة من القرن الثالث.

هذه المعتقدات الرومانية لم تكن محل اجتماع كل سكان المستعمرات ومنها المستعمرة السورية التي كانت تعدّ خمسة ملايين نسمة من السوريين واليهود واليونان. وينشط فيها الدعاة الدينيون (إذا لا وطنية ولا صراع طبقياً في مثل هذه الأزمة فقد كان كل صراع يأخذ شكل الصراع الديني) سواء تعلق الأمر بأديان قدمة كاليهودية التي ترقى إلى عهد القائد السياسي والنبي موسى الذي قاد اليهود على عهد الفرعون رمسيس الثاني (1298-1235) في هجرتهم من مصر إلى بلاد الشام وقالت عنه التوراة أنه كلام يهوه (Y.H.W.H) من فوق الجبل في سيناء وفتح الطريق لقيام الدولة اليهودية وازدهارها على عهد الملوك الثلاثة المشهورين شارل (1010-1030) وداود (975-1015) وسليمان (970-931) والتي ستبقى ذكرها حية عند القوم حتى بعد أن أصبحت دولتهم في وضع التابع لروما الأوروبيّة كما كان عليه الأمر في القرن الأول الميلادي أو تعلق الأمر بدين ناشيء جديد سيسى فيما بعد بال المسيحية نسبة إلى المسيح (من الآرامية: مشيها) وهو عيسى اليهودي أحد أحفاد الملك النبي داود وابن مريم ويوسف وآخر يعقوب رئيس كنيسة القدس المتوفى سنة 62 م. وقد ولد هذا المجدد الديني والمعارض السياسي في الناصرة (الخليل) سنة 7 أو 6 أو 4 ق.م كما أثبتت ذلك العلماء في العصور الحديثة على عهد قيسير أغسطس واشغل بالتجارة حتى حدود الثلاثين من عمره ثم نشط دينيا فأثار نشاطه هذا السلطة الدينية اليهودية الرسمية والسلطة السياسية اليهودية الحليّة عندما اتضح لهما أن

Josy Eisenberg. Une Histoire des juifs, 1970 - p. 578. - 14

15 - عبد الحميد الشرفي... الفكر الإسلامي في الرّد على النصارى، 1986 - ص .33

معاصرة الاصناف الهامشية والمنبوذة في المجتمع اليهودي من عشرين وبغايا
وأناس بسطاء محتقرين لجهلهم بالشرعية¹⁶.

وهذا الجانب الآخر في المسيحية هو الذي لن تتمكن الحضارة البورجوازية
الرأسمالية من هدمه في المسيحية لأنّه أفضى إلى تبلور علاقة بين الإنسان والله
قوامها الأب - الابن كبديل عن العلاقة السيد - العبد، ومن يقرأ بعض الكتاب
المسيحيين وغير المسيحيين من العرب المعاصرين كجيران في كل ما كتب
وكتحجب محفوظ في "اللص والكلاب" يحس بهذا الاستغلال المكثف لسلوك
المسيح الذي يتجاوز الاتمام الديني ويتجاوز أشكال الكتابة بدليل أن رواية كـ
"المعدبون في الأرض" لطه حسين تخلي رغم العنوان والنماذج البشرية موضوع
الرواية خلواً كاملاً مما ذكرنا. أما في الغرب المسيحي فقد مثل هذا الجانب في
مناصرة بعض رجال الدين للثورات التحررية وفي اشتغال كثير من اللاكتكين
باعمال البر عبر العالم. فلا بدّ عندئذ من استحضار هذا الجانب عند المقارنة بين
الموسوعية والمسيحية والحمدية : فشمس الله المسيحية تبدو هنا دافعة لا محركة.

لقد جمّعت اذن في الدعوة الجديدة كل العناصر التي تجعل منها دعوة خطيرة
دينياً وسياسياً واجتماعياً واقتصادياً على الدولة الرومانية ومحميها من أعيان
اليهود. ومن هنا كان الصراع بين عيسى والسلطة اليهودية المحلية :

أنّ حادثاً بارزاً في دعوه يظهر لنا متوجهاً إلى نوع من العنف المادي لصلاح
الموسسة اليهودية المركبة، ذلك هو طرد تاجر الميكيل، وهو حادث تبدو صفتة
التاريخية مؤكدة في جملته: إن عيسى بطرده العيف للصيارة الذين يوفرون للحجاج
النقود الخالية من الصور البشرية حتى يتمكّنوا من أداء الضرائب للميكيل، وكذلك
لتتجار الذين يعرضون على المؤمنين الحيوانات الصالحة للقرابان، إنما يهاجم أقوى
ووسط في الشعب اليهودي، ووسط المتصرفين في الميكيل وفي ثرواته وطقوسه،
وبالتالي يهاجم الخبر الأكبر ذاته¹⁷.

وردت السلطة السياسية اليهودية المحلية الفعل فاعتقلت هذا المعارض الديني -
السياسي وسلمته إلى سلطة الحماية الحريرية على الحفاظ على الأمان في

مسعمرتها " وكل الدلائل تشير إلى أنه قتل صلباً في ربيع سنة 30 م بطريقه
كذلك مرادفة لا يذكر لعنة في تلك البيعة"¹⁸.

لقد فلت السلطة السياسية وهي تسلك بازاء عيسى هذا المسلك العنيف أنها
قد اجتثت هذه الدعوة الدينية الجديدة من جذورها ولم تنفع في الابان إلى أن
الأموات في كثير من الأحيان هم أكثر حرطاً مما لا يقاد من الأحياء، وفعلاً
فلقد أصاب أتباع عيسى المؤمنين بأنه المسيح المتظر لا مجرد نبيٍّ من البشر ما
أصابهم من صدمة دامت بعض الوقت ولكنها لم تعمّر طويلاً. وتضخم السؤال
الكبير: كيف يمكن أن تتحسن كائنات بشرية زائلة لها حالداً؟

دام السؤال حيناً من الزمان وأفاق الحواريون من صدمتهم أثر رؤيا تعلن عن
نهافت الخيار الروماني. يقول يوحنا¹⁹ في رؤياه (18/1) متقدّماً عن ظهور
المسيح بعد دفنه:

"فلمّا رأيته سقطت عند قدميه كلمتَ، فوضع يده اليمنى على قائلًا : لا تخف،
أنا الأول والآخر والحي، وقد كنت ميتاً وها أنا حيٌّ إلّي دهر الدهور، ولِي
مفاتيح الموت والجحيم".²⁰

ولنستحضر من جديد ما ذهب إليه فيلو عندما قال بثنائية الإنسان وأنه مادة
روح أي شكل ومضمون فعيسي الذي صلب ودفن على مرأى وسمع من
الجميع أي عيسى التاريخي لم يكن غير الجسد والشكل والصورة أي هذه المادة
الزائلة الخاضعة لقوانين الطبيعة من حياة وموت ولكن المسيح الذي ظهر ليوحنا
في الحلم (أي في هذه الفترة التي بدأ لها فراغ ذهني مطلق لا شائبة تشويه
من حضور أرضي إنما هو ذلك المضمون الروحي الخالص الذي أسكنه الله
جسد عيسى حتى يكون واسطة بين الله والبشر ويوم انتهت رسالة عيسى في
الأرض عاد للاتصال بمصدره وهو الله في حين لم تحفظ الأرض منه إلا بما شبه
لمن صلبوه أنه المسيح وليس هو في الحقيقة غير وعاء المسيح (أي الجسد).

18 - المرجع السابق ص .38.

19 - يوحنا : أحد الحواريين الاثني عشر وصاحب أحد الانجيل الاربعة القانونية (ت).
حوالى (100).

20 - ع. الشرفي - الفكر الاسلامي، ص 38 (حاشية 45).

16 - المرجع السابق، ص .35.

17 - المرجع السابق ص .35.

من لا يطمئن إلا إلى الأحداث على تنوعها وتشتتها. إن المزاج الاعتقادي ينبع في كل ما يصدر عن العقلاني من تأكيدات. أما التجربى فهو يجد أكثر برولا إلى الشك وإلى إخضاع كل شيء للنقد الحر²¹ على أن هذا التأكيد في المسيحية لا يفسر بغير ظهورها في فترة وفي بيئة ابتعدتا كثيراً عن البساطة والفطرة.

كتاب غوستاف لوبوون (1841 - 1931) في ثمانينيات القرن التاسع عشر، عصر ازدهار الوضعيّة الفرنسيّة، مقارناً بين المسيحية التي ظهرت في بيئة فلسفية سبّبها تأكيد بالغ وبين الإسلام "دين الفطرة" في لحظة يعجب من قرأ كتاب لوبوون (وكتبه الآخر) كيف "استعصت" على حسن من ترجمته من العرب المسلمين إلى العربية أكثر من مرّة²²:

بإمكان الإسلام أن يفخر بأنه كان أول دين أدخل التوحيد الصرف في العالم. إن بساطة الإسلام الفاتحة منبعها هذا التوحيد وعليها أن نبحث عن سرّ قوته في هذه البساطة: أنه قريب المأخذ وهو لا يعرض على معتقديه أي سرّ ولا أي تناقض من هذه الأسرار والتناقضات الكثيرة الشيوع في عقائد أخرى والتي غالباً ما تصدم العقل السليم. هو يقول بالله مطلق الوحدانية على الناس عبادته وأن كل الناس أمامه سواء وعبادي قليلة يجب مراعاتها فالعلماني كثواب لم يتقدّم بها والجحيم كعقاب لم ينحطّها. انه لا شيء يامكانه أن يكون أكثر وضوها ولا شيء يامكانه أن يكون أرفع للبس. ان أي محمديّ مهما كانت مكانته الاجتماعية يعرف ما يجب أن يكون عليه معتقده ويعكّنه في كلمات قليلة أن يعرض في غيرها صعوبة أركان عقيدته. أمّا المسيحي فعليه إذا أراد المجازفة بالحادي في الثالث عن الشاث وعن استحالة القربان (أي تحول خبر القربان وحده إلى جسد المسيح ودمه) وعن أي سرّ مشابه من الأسرار أن يكون زيادة على صفتة كمسيحي عالماً باللاهوت، طويلاً الباقي في كلّ دقائق الجدل²³.

وفعلاً فإن المسيحيين سينشغلون طيلة القرن الثالث (والقرنون التي تليه) بصراعات دينية أظهرتهم كشتات أجزاء الدولة الرومانية المعجبة بطريقية الدولة

ولسوف ينتشر أتباع المسيح في العالم كله منذ هذه الفترة المبكرة لنشر الدين الجديد الذي سيزداد ابتعاداً عن اليهودية حتى يستقلّ بنفسه ديناً إنسانياً لا ديناً وطنياً مخصوصاً بشعب كالدين اليهودي رغم ما سيلحقهم طيلة ثلاثة قرون من تعسّف السلطة الرومانية واستعصاره هذا الدين على العقول الميالّة إلى فهم للأشياء قريباً من الأرسطو طاليسية البدرة الأولى للتفكير الأقرب إلى المادية والواقعية، ورغم اختلاف المسيحيين أنفسهم في فهم طبيعة المسيح. ذلك أنه ليس من السهل على كل الناس أن يفهموا كيف يكون من الممكن أن يتحول إنسان خاضع لطبيعة البشر بما تتضمنه من ولادة ونموّ فموت إلى كائن خارج عن قوانين الطبيعة يظهر في النوم بعد صلبه بأيام لبعض حواريه ليعلن لهم أنه حيٌ خالد لا يموت. ورغم هذه النشأة "القيصرية" لبعض الأديان فإن الغريب فيها أنها يوم تتمكن بفعل الرزق من نفوس الناس تكتسب لارتباطها بمصير الإنسان ما ليس بامكان أي تجربة بشرية أن تكتسب.

تحدّث المعري في حيرة عن الأديان جميعها:
 وغسل الوجه ببول البار
 عجبت لكسرى وأشياعه
 ورجل لم حيا ولا يتصدر
 يقول النصارى الله يضم
 رئيس العظام وريح القراء
 يقول اليهود الله يحب
 لرمي الحجار ولشم الحجر
 قوم أتوا من أقصاصي البلاد
 أعمى عن الحق كل البشر
 فوا عجاً من مقالاتهم

وتحدّث وليم جيمس (1842-1910) في كتابه: "البراغماتية" عن "المزاج العقلاني" و"المزاج التجربى" فكتب: "إن تاريخ الفلسفة [والاديان والأدب والفن والسياسة...] إنما هو في جزء كبير منه تاريخ نوع من النزاع بين الامزجة البشرية" وفي الفلسفة [وفي الأنشطة الإنسانية الأخرى] نرى تبايناً تعبّر عنه الصفتان "عقلاني" و"تجربى". والصفة الأولى تلازم من يكون من الناس مسكوناً بهذا الاطمئنان إلى المبادئ الخالدة والمطلقة في حين تلازم الثانية

21 - William James - Le pragmatisme - Paris, 1968 - pp. 25, 27, 28 - 21

22- الحقيقة أن من ترجوه إلى العربية نهاية القرن التاسع عشر خاصة حذفوا منه ما لو نشر عملاً بالأمانة "العلمية"- لعلقاً بسببه على المشانت المعنوية والحلبية.

Gustave Lebon - La civilisation des Arabes, 1959 - p. 79. - 23

البعض²⁶. وهكذا فإنه بامكان التزعة الاسكندرية الافلوبطينية أن تبلغ في تأكيدها على وحدة شخص المسيح حد انكار طبيعتين فيه مختلفين : واحدة مسالية وأخرى الاهية. كما أنه بامكان التزعة الانطاكيه الارسطوطاليسيه أن تبلغ في تأكيدها على اختلاف طبقيتي المسيح الانسانية والاهية حد رفض القول أن مریم هي أم الله.

ولسوف تشتد المخصوصة بين المدرستين في القرنين الرابع وخاصة الخامس فيندرج أنصار الرؤية الأولى في من يسمون بالمونوفيزيين (نسبة إلى من يقول بالطبيعة الواحدة للمسيح) في كل من مصر والشام ويندرج أنصار الرؤية الثانية في من يسمون بالنساطرة في بلاد الرافدين وفارس... أما روما أولاً وبينطة بعد القفال مركز السلطة السياسية نهائاً إليها فتنسب إلى أنصار الأولى صفة الكاثوليك وإلى أنصار الثانية صفة الملوك أو الورثوذوكس.

هذا في ما يتعلق بتأثير التراث الفكري القديم في طريقة تقبل المناطق الرومانية المختلفة أوضاعاً اقتصادية واجتماعية وتراثاً ثقافياً ضارباً في القدم للمسيحية وهذه ظاهرة ستعبرها كل الديانات. ففي الإسلام مثلاً إذا كان كل المسلمين يقولون نظرياً بشرط الإسلام فهم على مستوى ما يضمنون هذه المفاهيم من مضمون، يظهر السلوك اختلفها، يبدون بعد ما يكونون عن الوحدة في اليمن والنجدي والمكي والمصري والشمال الأفريقي حتى لا تتحدث عن الأفغاني والأندونيسي من فروق الحس الديني ما لا يرفض القول به إلا من يقول إن إسلام روحي غارودي وأسلام هذا الذي فسر أحمرار لون مطر ملوث بحرب شعاوية بين المؤمنين والكافر هما إسلام واحد. أما ما ذكرنا من تعقد هذا الدين فيمكن أن نضرب عليه مثيلين : مثل النبي محمد الذي كان يختلف ضمن تعادلية صعبة بالصلة والعطر والنساء ومثل "أوريجينوس" الذي ذكرنا اطلاق الامبراطورة السورية جوليانا ب بصورة شخصية أو بطريق المطالعة على مأسفته المتصلة بطبقيته المسيح : لقد بلغ زهد أوريجينوس في الدنيا حدّاً دفعه إلى أن يجيئ نفسه ابتغاء قتل الطبيعة الأرضية فيه وسعياً منه إلى تحرير نفسه من قيد

السياسانية في قمع النبي ماني وأنصاره وتركيز الم Hormozia الزرادشتية دينا رسماً للدولة.

ان تعقيد الدين الجديد وتشتت معانقه يرجعان كذلك إلى ما تتصف به أجزاء الامبراطورية الرومانية من خصوصيات واحتلاف في مستوى التطور ومن ثم أشكال التقبل الديني. وكانت مراكز الإشعاع المسيحي في هذه الفترة ثلاثة هي قرطاج والاسكندرية وأنطاكيه حتى لا تتحدث عن روما التي كانت (وستبقى) تطبع إلى الانفراد بشرعية التوجيه الديني تبعاً لمكانتها السياسية في الامبراطورية هذه المراكز الثلاثة من الصعب أن يكون بامكانها لأسباب اجتماعية وثقافية وسياسية أن تتقبل المسيحية (أو أي دين آخر) التقبل نفسه وسيكون تاريخها الدين السياسي محكموا بهذه الخصوصيات: ولذلك فيقدر ما بدا الشمال الأفريقي قريباً من الامثلية الدينية السنوية لأسباب من بينها قرب قرطاج من الجزمة الإيطالية (botte italienne) بدت الاسكندرية، التي تغلغل فيها التفكير اليوناني منذ فتحها اسكندر سنة 332 ق.م فركب تراثاً فرعونياً يحتفل بالموت احتفالاً بالغاً، موطننا لفكرة تغلب عليه التزعة الافلوبطينية التي تميل إلى التوفيق بين الأفلاطونية والمسيحية فتقعها بذلك من طبيعة المسيح الانسان (الأرض، المادة، الطبيعة، السياسة، وما نشوء الرهبنة في هذه البلاد وانتشار ظاهرة "ختن" البنات في فترة ما من فترات التاريخ الا دليل اضافي على ذلك) وحتى تصل إلى هذه الغاية كانت كثيراً ما تعمد إلى قراءة باطنية للنصوص الدينية بحثاً عن معنى أعمق من المعنى الذي تتيجه حروفها الظاهرة²⁴.

أما انطاكيه مركز الإشعاع في سوريا فكانت أكثر ميلاً إلى الارسطوطاليسيه لذلك فهي تميل إلى فهم طبيعة المسيح فهما فيه الكثير من البشرية والارضية والمادية والطبيعة وذلك على الأقل في فترة من فترات النشأة الأولى²⁵ وحتى تصل إلى هذه الغاية كانت كثيراً ما تفضل عند قراءة النصوص الدينية انتهاج طريقة نقديّة ديليكتيّة قوامها اعتماد المعنى القريب والظاهر في

Pierre Rondot - Les Chrétiens d'Orient, 1955 - p. 40. - 24

25 - في فترة لاحقة ستهيمن المونوفيزية في بلاد الشام.

الجسد. فسلوك أوريجينوس كان نابعاً من تصوّره الخاص للمسيحية ولقضية طبيعة المسيح.

هذا إذن مثال على التعقيد البالغ في هذا الدين الذي ما كان ليكتشف فيه التجريد العقلي لو ظهر في بيئة غير البيئة السورية المشبعة تراثاً فلسفياً وهكذا كان وضع المسيحيين في القرن الثالث: خصومات دينية بين أنصار الدين الجديد وخصومات بينهم وبين اليهود وخصومات بينهم وبين أتباع الوثنية الرسمية. ولقد كانت الامبراطورية الرومانية ترقب بقلق تفتت الوحدة العقدية في الامبراطورية في وقت عمده في الدولة الشرقية الخصم إلى اعدام ماني حفاظاً على دين الدولة الرسمي أي حفاظاً على مركزيتها. لذلك لا يستغرب المرء أن يتّخذ الامبراطور دقيوس (251-248) سنة 250 إجراءات قمع ضدّ المسيحيين اضطررت الكثيرون إلى الفرار من عسف السلطة ومنهم أهل الكهف الذين تحدّث عنهم القرآن (الكهف 18/8-25، أو أنّ يتّخذ بعد

فترة تسامح نسيّي امبراطور آخر هو ديوقلتيانوس (305 - 284) تدابير ضدّ المسيحيين أقصى مما اتخذه دقيوس:

أثار هذا الامبراطور أعنف اضطهاد وأقساه في تاريخ الكنيسة فاصدر تباعاً أربعة أوامر يقضي أحدها بهدم الكنائس ومصادرة الكتب والأئنة المقدسة ومنع المسيحيين من شغل وظائف في الدولة ويقضي الثاني بسجن الأكليروس بينما يوضح الثالث مصير المساجين ويتوّج الرابع هذه التدابير بالحكم بالموت أو العذيب أو النفي إلى المناجم على الذين ينتفعون من تقديم القراءين للأهله.²⁸

لقد بقي هذا الامتحان في التراث الفكري والأدبي المسيحي مثلاً مزدوجاً على حبروت الرومان الوثنيين واستماتة المسيحيين في الدفاع عن دينهم. نظم الشاعر الرومي الكاثوليكي الغساني اللبناني خليل مطران (1871 - 1949) في احتفال أقامه الاقباط المونوفيزيون تخليداً لذكرى شهدائهم:

الله واذكر ربّك اذا نسيت وقل عسى ان يهدبني ربّي لأقرب من هذا رشدنا . ولبسوا في كهفهم ثلاث مائة سنتين وازدادوا تسعاً . قل الله اعلم . بما لبشو له غيب السماروات والارض أبصر به واسع ما لهم من دونه من ولٍ ولا يشرك في حكمه أحداً "الولهت منهم فراراً وملئت منهم رعباً . و كذلك بتعاهم ليتساعطاً بينهم قال قائل منهم كلام يتم قالوا للبنا يوماً وبعض يوم قالوا ربّكم أعلم . بما لبسو فيأبعثوا أحدكم بورقكم هذه الى المدينة فلينظر إليها أزكي طعاماً فلياتكم برزق منه وليتلطف ولا يشعرون بكم أحداً انهم يظهروا عليكم برمجوكم او يبعدوكم في ملتهم ولن تقلعوا اذن أبداً . وكذلك أغترنا عليهم لعلموا أنّ وعد الله حقّ وأنّ الساعة لا ريب فيها اذ يتنازعون بينهم أمرهم قالوا ابوا عليهم ببنانا ربّهم أعلم بهم قال الدين غلبوا على أمرهم لتعذّن عليهم مسجداً سيفقولون ثلاثة راعيهم كلّهم ويقولون خمسة سادسهم كلّهم رجماً بالغيب ويقولون سعة وثامنهم كلّهم قل ربّي أعلم بعدتهم ما يعلّمهم الا قليل فلا غبار فيهم الامراء ظاهراً ولا تستفت فيهم منهم أحداً ولا تقولن لشيء انتي فاعل ذلك غداً الا أن يشاء الله واذكر ربّك اذا نسيت وقل عسى ان يهدبني ربّي لأقرب من هذا رشدنا . ولبسوا في كهفهم ثلاثة مائة سنتين وازدادوا تسعاً . قل الله اعلم . بما لبسو له غيب السماروات والارض أبصر به واسع ما لهم من دونه من ولٍ ولا يشرك في حكمه أحداً"

28 - ع. الشرفي - الفكر الإسلامي ص 83.

27- "آم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجباء، اذ آرى الفتية الى الكهف فقالوا ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيء لنا من أمرنا رشداً فضربنا على آذانهم في الكهف سنتين عدداً ثم بتعاهم لتعلم أي الحزبين أحصى لما لبتوه أمداً. نحن نقصّ عليك نباهم بالحق انهم أمنوا بربهم وزدناهم هدى وربطنا على قلوبهم اذ قاما فالدوا ربنا رب السماروات والأرض لن ندعو من دونه إلهاً لقد قلنا اذن شططاً. هؤلاء قومنا اخذنا ربّ السماريات والارض من دونه إلهاً لقد قلنا اذن شططاً. من دونه آلة لولا يأتون عليهم بسلطان بين فمن أظلم ممّن افترى على الله كذباً. وادع اعترتموهم وما يعبدون الا الله فأتوا الى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمهته وبهيء لكم من أمركم مرفقاً. وترى الشمس اذا طلعت تزور عن كهفهم ذات اليمين و اذا غربت تفرضهم ذات الشمال وهو في جحوة منه ذلك من آيات الله من يهد الله فهو المهند ومن يضلّ فلن يجد له ولها مرشدنا . وتحسّبهم أيقاظاً وهم رقود ونقلبهم ذات اليمين و ذات الشمال وكلّهم باسط ذراعيه بالوصيد لو اطلعت عليهم لوليت منهم فراراً ولملئت منهم رعباً . وكذلك بتعاهم ليتساعطاً بينهم قال قائل منهم كلام يتم قالوا لبساً يوماً وبعض يوم قالوا ربّكم أعلم . بما لبسو فيأبعثوا أحدكم بورقكم هذه الى المدينة فلينظر إليها أزكي طعاماً فلياتكم برزق منه وليتلطف ولا يشعرون بكم أحداً . انتي يظهوروا عليكم برمجوكم او يبعدوكم في ملتهم ولن تقلعوا اذن أبداً . وكذلك أغترنا عليهم لعلموا أنّ وعد الله حقّ وأنّ الساعة لا ريب فيها اذ يتنازعون بينهم أمرهم قالوا ابوا عليهم ببنانا ربّهم أعلم بهم قال الدين غلبوا على أمرهم لتعذّن عليهم مسجداً سيفقولون ثلاثة راعيهم كلّهم ويقولون خمسة سادسهم كلّهم رجماً بالغيب ويقولون سعة وثامنهم كلّهم قل ربّي أعلم بعدتهم ما يعلّمهم الا قليل فلا غبار فيهم الامراء ظاهراً ولا تستفت فيهم منهم أحداً ولا تقولن لشيء انتي فاعل ذلك غداً الا أن يشاء

ذلك فان جزءاً كبيراً من القبائل العدنانية ستبقى الى فترة متأخرة على وثنية شاذة اذا ما قيست الى تطور امم أخرى.

ثالثاً: ان المرء لن يعد حتى القرن السابع قبائل عربية مازالت تعبد الاوثان من ودّ (كلب بذوره الحندل) الى سواع (هديل يبنع) الى يغوث (أنعم من طيء وأهل حرش) الى سعد (ملكان بجدة) الى مناة (الاوس والخزرج)... ولكن ذلك لا يعني أن العرب لم يعرفوا منذ هذه الفترة بداية تفتّت في النظام العقائدي الذي كان قائماً في منطقتهم وسيدفع تنصّر الدولة الرومانية في العقود الأولى من القرن الرابع أعداداً متزايدة من العرب إلى التصرانة وإن في أشكالها الوطنية المطرورية (النسطورية في الحيرة والمونو فيزية في بصرى).

رابعاً: يمكننا مع بعض التحفظ ازاء الفترة التي قال هافيت Havenith إن المسيحية انتشرت فيها في بعض القبائل العربية أن نأخذ برأيه في ما ذهب إليه من تحديد لقبائل العربية التي انتشرت التصرانة في صفوتها:

يمكن أن نذكر من هذه القبائل تغلب وغير وبهاء وتتوخ والمخمين وإن كان أمراء هولاء قد يقوا وثنيين لفترة طويلة والغسانيين بطبيعة الحال. أما إيد فهزال الت في أغلبها وثنية. وفي شمال الجزيرة العربية كان الكلبيون وجذامة في أغليتهم نصارى وليس ذلك شأن طيء التي لم تنتصرا لا في جزء منها. وقد تعرضت يمامة وحيفة في وسط الجزيرة إلى التأثير المسيحي كما تعرضت لذلك وإن بقدر أقل كل من تميم وعبد القيس. وكان للنازرين في البحرين وعمان كنائس مزدهرة شأنهم في ذلك شأن قبائل الحضر وكيدة في الجنوب العربي وكذلك سكان جزيرة سوكوتة.³³

السميساطي وزير الملكة زينوبية (267 - 272) في تدمر: هذه الملكة لم تكون مسيحية ولكنها كانت تأخذ عنده تألهفي وكان ابنها وشريكها في الحكم يسمى وهب اللات (أي هبة اللات، واللات والعزى ومنة طيور بحرية) على عادة الوثنين ولكنها حمت طيلة فترة حكمها مستشارها السياسي وخازن المملكة بولس السميساطي حتى عندما أداهه مجتمع انطاكية وأقاله من منصبه الديني لـ "هرطقته" وقوله ان المسيح استحال لها (أي لم يكن كذلك في الأصل). بما تحقق عنده من تلاوم بين ارادته واتخاذ حجه للأب.

وتشير كثير من المصادر والمراجع المتعلقة بهذه الفترة الى الجهد الذي بذله أوريجينوس (254 - 186) في سبيل العودة ببعض "المراطقة" العرب في بصرى وشرق الاردن والعربية الصغرية الى النهج الديني الصحيح وقد اضطر أكثر من مرة الى الانتقال من الاسكندرية الى بلاد العرب تحقيقاً لهذا الغرض. ان هذا يعني أن المسيحية قد انتشرت بشكل كبير في الجزيرة ولا أنها قد حللت حتى في الجيوب التي انتشرت فيها قدرًا كبيراً من العمق الفكري ولا أنها لم تكن تُحاور عبادة الاوثان اذ لا يمكن للناس حتى عندما يتبنّون مفاهيم جديدة أن لا يحتفظوا بقدر كبير أو صغير من مضمون تراثهم السابق. ومع ذلك فيمكن للمرء أن ييدي في ما يتعلق بهذه المسألة بعض الملاحظات :

أولاً: ميل العرب من بنذوا الوثنية في بلاد الرافدين خاصة الى المسيحية وانصرافهم عن المزدية رغم ارتباطهم السياسي بالساسانيين وأسباب ذلك كثيرة ولكن يمكن القول انه قد برع حتى عند بعض الایرانيين ميل الى المسيحية واعتراض عن المزدية منذ عهد ماني فكأن هذه الدعوة الدينية كانت تشي بعدم ملاءمة المزدية لروح القرن الثالث : وسيبذل الایرانيون بعد سقوط الدولة الساسانية بقرون جهداً كبيراً لاستعادة شخصيتهم السياسية واللغوية ولكنهم

لن يدوا رغبة مماثلة في ما يصل بالمزدية...

ثانياً: بعض النظر عن تعايش المسيحية والوثنية عند بعض القبائل العربية فالملاحظ أن المسيحية سوف تتسرّب في هذه الفترة المبكرة الى العرب الجنوبيين أكثر من سواهم لقرب مواطنهم من حلبة الصراع العقدي وعلى العكس من

الفصل الثالث

بين قسطنطين وسabor "ذى الاكتاف".

مكّن تنصير الدولة الرومانية الدين المسيحي من قدرات تبشيرية ضخمة فازداد انتشاراً في منطقة النفوذ الروماني وبلغت دعوته أهلاً جديدة في المناطق القرية من هذا النفوذ. وأفضل مثال يمكن أن يضرب على هذا الانتشار هو تنصير الحبشة نتيجة النشاط التبشيري المصري واجتهاد المسيحيين في تنصير "اليمن":

فنحن نعرف أن جنوب الجزيرة قد تنصر من قرون الأولى. وقد روى روفين قصة تصير الملكة الحميرية بين 326 و 360 م. لقد أراد مirobius أحد فلاسفة مدينة صور استكشاف هذا البلد رفقة شابين هما أيدسيوس Aedessius وفروميتوس Frumintius. وفي أحد الموانئ قتل السكان مirobius وبعثرا أيدسيوس وفروميتوس أسيرين إلى الملك انتقاماً لخلف نقضه الرومان. وقد نال فروميتيوس ثقة الملك عمرو وأصبح سكرتيه. وبعد موته اعتلى بابنه وأصبح مستشار الملكة بلقيس. وقد انتهز هذا المقام العلي لنشر الانجيل فسامه القديس آثاناوس Athanase بطريق الإسكندرية اسقفاً للملكة.¹

وإذا كانت هذه الأخبار تتحدث عن تبشير سلمي فمن الأخبار كذلك ما يفيد أن التبشير أخذ أضافة إلى الشكل السلمي شكلاً عسكرياً بحثاً:

فقد يكون ملك آثيوبيا قد استولى سنة 345 تقريباً على اليمن وعيّن عليها حاكماً فتقصر السكان وبنوا لهم كنائس كثيرة.²

.65 Havenith, Les arabes chretiens nomades, -1

2- المرجع السابق، ص 65

فالاجماع حاصل حول ما كان لنجاح مسيحي مصر في تنصير الحبشة من أثر كبير في تأجيج صراع ملك الملوك الحبشي (النجاشي Négus) ضد الدولة السبيبية التي انقسم سكانها إلى متنصرين ومتهودين ووثنيين. وقد انتهى الضغط المسيحي الحبشي بالهيمنة على جزء من البلاد فتلقى الملك الحبشي بلقب ملك (أكسوم وهمير وريدان وحبشة وسلع وتهامة)³

إن ما قيل عن الحبشة وعن همير في هذه الفترة يمكن أن يقال عن بعض القبائل العربية شمال الجزيرة وعن أحناس أخرى تقع مواطنها قريراً من منطقة التأثير الروماني. غير أن انتشار المسيحية بهذا الشكل السريع على عهد قسطنطين (306-337) وخليفة كونستانتinos الثاني (337-361) في بيزنطة وخليفة كونستانتوس الأول في روما (350-337) إذا كان يخدم الكنيسة والدولة الرومانيتين في الأمد بعيد فإنه لم يكن ليخدمها على المدى القريب ذلك أن الغوط (Goths) كانوا قد تجمعوا في هذه الفترة بفرعيهم اللاحقين الاستروغووط (Ostrogoths) والفيزيغوط (Visigoths) على حدود الإمبراطورية الرومانية الاروية الوسطى واتخذوا وهم ينتصرون من الاريوسية التي تنفي الوهية المسيح مذهبهم. وفعلاً فإن الاسقف الاريوسي أوليفلاس (Ulfilas) قد تمكن من نشر هذا المذهب بينهم وصاغ لهم كتابة ولغة سوفتمكنهم من دعم خصوصيتهم الجنسية بخصوصية دينية لغوية وستتحول دون قدرة بيزنطة وروما على ابتلاعهم وفتح الطريق إلى الخصوصية القديمة الحديثة التي تفرق بين اللاتين (Latins) والشعوب السكاندينافية الانكلوساسونية.

لقد كانت الاريوسية بسبب توفر هذه المقومات الثلاثة أكبر خطر هدد المسيحية السنية فأريوس Arius القس الليبي (توفي سنة 336) يذهب في فهم طبيعة المسيح مذهبها دفع سيد قطب المصري زعيم الأخوان المسلمين إلى أن

يرى فيه أصلاح معبر عن المسيحية القويمة⁴ ودفع أحد المختصين في دراسة الاسلام المعروفين إلى أن يقول قبل سيد قطب "أن أفكار الاريوسية المتعلقة بشخص المسيح كانت مطابقة تقريباً لما ستكون عليه أفكار الاسلام"⁵ ذلك أن آريوس يرى أن الله واحد أحد لم يولد وليس في الامكان أن ييث جوهره (substance) في مولود. فكل شيء باستثناء الله الواحد إنما خلق بإرادته منه يقول له كن فيكون. وانطلاقاً من هذا الفهم ليس بإمكان الكلمة (Le Verbe) أن يكون أكثر من مخلوق ميزته، حسب آريوس، أنه خلق قبل العالم وقبل الزمن. ويوضح آريوس قوله الأخير "قبل الزمن" دفعاً لكل تأويل تاليه لل المسيح: "لقد كان زمن لم يكن فيه الكلمة موجوداً". وإن فاليسخ مخلوق وسط بين الله والبشر وليس بإمكان البيئة أن تكون إلا بالتبنّي " فهو أقل منزلة من الله وإن كان أكمل من وحد ضمن المخلوقات"⁶. إن مذهب آريوس يعني نفي الوهية المسيح. والحقيقة أن اعتناق الغوط هذا المذهب يثير قضية المضامين الدينية (وغير الدينية) التي ترغّبها الأمم المختلفة في ما يعرض عليها من مفاهيم. وهذه المضامين تختلف من أمة إلى أخرى لاختلاف تاريخها وثقافتها. وحتى في المجتمعات المعاصرة التي استفادت من تطور التقنية وانتشار التعليم، يصعب على المرء أن يقرّ أن القوم في تونس (وما تتضمنه من مرتبة في الثقافة والوعي) وفي فرنسا وفي كينيا وفي الجملة يضمّنون مفهوم المجتمع المدني مثلاً المضامون نفسه وذلك بالرغم من أن الجميع يرددونه صباح مساء. وقد يكون بعد القوط عن البيئة الشامية المصرية التي تشعب الجدل الفلسفـي فيها أثر في اتجاهـهم إلى اعتناق هذا المذهب القريب من الفطرة.

وعندما سيتمكن الوندال مثلـاً من حكم شمال افريقيـة طيلة قرن من الزمان (429-533) فإـنـهم سوف يفرضـون هذا المذهب فـرضاً فـلا يـفترض إلا

Havenith, les arabes -4
Gaudefroy-Demourbynes et autres: L'Islam et la politique contemporaine, 1925, p: 10. -5
Paul Lemerle: Histoire de Byzance, p: 19. -6

3- النجار، علاقة... ص 13.

وإضافة إلى هذين الناحيتين، دفع اتجاه السلطة الزمنية إلى ضبط مجال النشاط الديني إلى تحديد منزلة كل مركز من المراكز الدينية في الإمبراطورية فتنزلت كل من الإسكندرية وانطاكية في المنزلة الأولى وتلتها القدس في المرتبة، وإذا كانت القسطنطينية قد "تعالت" عن هذا التناقض فإن وضعها في بيزنطة مقرر إقامة قسطنطين كان يفي بالطلب. ومن الطبيعي أن لا تنظر روما (وابتعتها قرطاج) بعين الرضا إلى هذه المرتبة التي ستكون لها نتائج خطيرة على العلاقات الدينية بين مراكز المسيحية في القرون اللاحقة.⁸ فهل يمكن الحديث هنا، والحال على ما وصفنا عن "أعمال قسطنطين" باللغة التمجيدية التي يستعملها كثير من الديانين واللاكتكين عندما يتحدثون عن أعمال قسطنطين.

إن استعراض أهم الأحداث في عصر خليفته في بيزنطة كونستنس (361-337) وجوليان الجاحد (363-361) وفالنس (364-378) وفي روما كونستان الأول (337-350) وخلفائه، حري، إضافة إلى ما استعرضنا من خصومات دينية بتقييم هذه الفترة الخامسة من تاريخ الإمبراطورية الرومانية ومن ثم بيان ردة فعل تيودوس (395-379) على ما بدا له من انهيار روماني شامل. ففي إيطاليا قتل فالنس وهو يحاول التصدي لضغط الفيزيغوط أما أخوه فالنتيان الأول (375-364) فقد اضطر إلى الإقامة بميلانو قريباً من منطقة ضغط البرابرة الحرمانيين ولم يتمكن إلا بصعوبة لفترة وجيزة من صد هجماتهم وسيقتل أحد الضباط الأفرنج خليفه فلنتيان الثاني (392-375) في محاولة لفرنجة الإمبراطورية.

أما في الشام فالمصادر تتحدث عن ضعف روماني سمح بتمرد أميرة عربية لا يشبهه إلا ما حدث قبل قرن في تدمر على عهد زنوبيا:

فقد أعلنت ماريّة التي كان زوجها خليف الإمبراطور فالنس (364-378) بعد أن ترملت بين 373 و 374 الحرب على الرومان وانتصرت عليهم في فلسطين وفيقها

بانقراضهم. على أن أثره قد يكون بقي حيّاً عند جماعات من البربر فسهل عليها اعتناق الإسلام.

ويكاد المرء يستغنى عن القول إن المسيحية السننية في بيزنطة وروما وغيرهما من مراكز النشاط الديني المسيحي لا يمكن أن تقر موقف الاريوسيين. أما قسطنطين فقد كان كرجل سياسي أكثر انشغالاً بتأثير هذه الانقسامات الدينية على قوة الدولة لذلك دعا إلى عقد جمع مسكوني (Oecuménique) أي عالمي نسبة إلى المسكونة أي الأرض في نيقية (Nicée) سنة 325 اعتبار أول جمع مسيحي عالمي للبت في هذه القضية. وقد انتهى المجتمع إلى الإقرار أن "الابن هو من طبيعة الآب" أي إلى إدانة الاريوسية.

لقد كان لهذا الحدث أهمية بالغة إذ أنه من ناحية إدانة الاريوسية التي لم تكن مجرد تعبير عن رأي ديني تقول به أقلية، بل كان تعبيراً عن "قراءة" للدين ضاربة في الفكر الفلسفى القريب من الطبيعية ولذلك فإن هزيمتها الرسمية سنة 325 لم تكن إلا هزيمة مؤقتة إذ كان يعتقد القوط وستكون في بيزنطة نفسها مراكز قوى أريوسية، بل أن الإمبراطور فالنس Valens (378-364) خليفة ابن قسطنطين نفسه سيعتقد هذا المنبه إما عن إيمان وإما مجراة للضغط القوطي. من ناحية ثانية حدد هذا المجتمع بشكل فظ العلاقة بين السلطة الزمنية (الإمبراطور) والروحية (الكنيسة) تحديداً يخضع المجال الديني لمصلحة الدولة:

فأهمية المجتمع ليس مردها فحسب إلى أنه وهو يصوغ لأول مرة في تاريخ الكنيسة عقيدة الثالوث قد وضع أساس الدينية المسيحية العقدية ولكن بمرة كذلك إلى أن السلطة الإمبراطورية قد تدخلت لأول مرة في مسألة عقدية فتحددت انتلاقاً من ذلك كل العلاقات اللاحقة بين السلطتين الزمنية والروحية. وإذا أوكل على لفظ الزمنية بذلك لأن قسطنطين تدخل في المسألة على اعتبار أنه سلطة زمنية فحسب بل يمكن القول أنه تدخل كسلطة بوليسية إذ لا يبدو أنه كان يهدف إلى غير الحفاظ على السلم والنظام داخل الكنيسة المسيحية التي أصبحت جهازاً من الأجهزة الهامة في الإمبراطورية.⁷

بل أخضعت الشمال الشرقي المصري وهزمت قائدًا رومانيا دعى لتعزيز الجيش الروماني وإضطررت روما إلى إجراء مفاوضات معها تحقيقاً للسلام.⁹

لقد ورث سابور الثاني (310-379) معاصر قسطنطين، المشهور عند العرب بـ"ذو الأكتاف"، عرشاً ساسانياً لا يذكر كثيراً مما كانت عليه الدولة الساسانية طيلة نصف القرن الذي حكم فيه اردشير وسابور الأول. وقد تخلّى هذا الوضع حتى في امتداد فترة حكم من خلفوا هذين الشاهين المؤسسين؛ فإذا كان سابور قد حكم البلاد ثلث قرون فإن خلفاء الخمسة هرمز (272-273)، وبهرام الأول قاتل ماني (273-276) وبهرام الثاني (276-293) ونرسيس (293-302) وهرمز الثاني (302-309) لم تتجاوز فترة حكمهم أجمعين فترة حكم سابور الأول بكثير.

وقد زاد الوضع سوءاً أن سابور الثاني لم يكن وهو يتسلّم الحكم إلا طفلاً في وصاية أمه التي كانت تسير شؤون الدولة مستعينة بـكبار رجال البلاط الساساني الذين تركت سياستهم على الدفاع عن حدود الامبراطورية المهددة من الجهات الأربع. ففي الشمال والغرب اشتد الضغط الروماني (على الرغم من ضعف الدولة الرومانية) وتعددت وجوهه بعد تنصّر الدولة فأعلن تريادات (294-324) ملك أرمنيّة استقلال بلاده عن الساسانيين بعد أن اعتنق المسيحية فضمن دعم الرومان. وفي الشرق اشتد ضغط الترك على بلخ (باكتريان). أما في الجنوب فقد تقلص دور إمارة الحيرة نتيجة ضعف الدولة الساسانية الخامسة وأبخرَ عن ذلك ضغط بدوي عربيٍّ على الحدود الساسانية. كتب ابن خلدون في ذلك:

وشايع في أطراف المملكة أنهم (يقصد الساسانيين) يولون صبياً في المهد فطعم فيهم الترك والروم. وكانت بلاد العرب أدنى بلادهم وهم أحوج إلى تناول الحبوب من البلاد ل حاجتهم إليها بما هي من الشنط وسوء العيش. فصار منهم جمع من ناحية البحرين وببلاد القيس وواحاتة فاناخوا على بلاد فارس من ناحيتهم وغلبوا أهلها على الماشية والحرث والمعايش، وأكثروا الفساد ومكثوا في ذلك حيناً ولم يغزهم أحد من فارس ولا دافعهم لصغر الملك.¹⁰

إنه ليتمكننا أن نصدر ما يشبه القانون السياسي فيما يتعلق بوضع العرب المحكوم بـتوازن القوتين العظيمتين. فكل ضعف يلحق أحدهما أو يلحقهما معاً تنجر عنه حالة فوضى في الجزيرة العربية. ولا يوجد استثناء لهذه القاعدة إلا عندما تمكن النبي والقائد السياسي محمد في القرن السابع من تهيئة العرب لاستغلال ناجح لضعف القوتين العالميتين فأحلوا محلهما الدولة العربية الإسلامية.

وتبعد لذلك يمكن أن نستنتج أنه وقد وصل وضع الرومان في الشام إلى حد تمكنت فيه أميرة عربية تابعة لهم من التمرد عليهم والحاقد هزائم بعض كبار قادتهم العسكريين لا بد أن يكون قد حدث ما يشبه ذلك في اليمن.

وفعلاً فإن اليمنيين سوف يستغلون هزائم الرومان في الشام وما أخبر عنها من تقلص دعم الرومان للحبشة الخليفة، لاعلان ثورتهم على الأحباش والانتصار عليهم سنة 375 بقيادة ملكي كرب بل سيرتدون عن المسيحية مدفوعين بنوع من "الوطنية" لأن هذا الدين ارتبط في أذهانهم بصورة الغزاة الأحباش. فقد توجه خليفة ملكي كرب، أبو كرب أسعد (ت 425) سنة 400¹¹ إلى المدينة (يُشرب) لكي يهود وكأنما كان مدفوعاً إلى ذلك برغبة في مناولة الدين الجديد الذي دانت به الحبشة عدوًّا بلاده وخصيمها العنيف.¹⁰

إن حالة الانهيار الروماني الشامل نهاية القرن الرابع كان يمكن أن تُمثل فرصة تتnezّها الامبراطورية الساسانية لقضم أجزاء شاسعة من منطقة النفوذ الروماني لو كانت على قدر من القوة يسمح بذلك ولكنها لم تكن كذلك إذ كانت كالروم تشكو انحراماً داخلياً ورغم هذا الوضع المتردي في الدولتين فإنهما لم تكفا عن الصراع طيلة هذه الفترة.

11- ابن خلدون، العبر، ج 3 ص 347-348.

Havenith: Les Arabes..., p. 52 -9

10- النجاري، علاقة... ص 13.

هكذا حاول سابور الثاني نشر سلطة الساسانيين من جديد في الخليج وما بين النهرين حتى الجزيرة. ولقد ضمّ البحرين إلى ممتلكاته ولكنه لم يتمكن من إخضاع عرب هذه المناطق إخضاعاً تاماً إذ سجدهم ينضمون إلى بوليانوس الجاحد (361-363) عندما هاجم سابور الثاني "ثأرهم عند سابور" من قتل منهم (...) فأحجم عن اللقاء وصجبه العرب ففضوا جموعه وهرب في فلّ من عسكره¹⁴. بل إننا نعثر على وقائع لهم ضد الساسانيين على عهد خلفاء سابور الثاني، أردشير الثاني (379-383) وسابور الثالث (383-388) الذي كانت له مع إياد حرووب ذكرها شاعرها في قوله:

على رغم سابور بن سابور أصب
حت قباب إياد حوطها الخيل والنعم

إنه لا سبيل إلى فهم انكفاء النفوذ الساساني في بلاد العرب إلا بالذكر لما كانت تتعرض له الامبراطورية من ضغط على كل الحدود. وإذا كانت الحروب الرومانية الساسانية المتتالية (345، 363) ستفضي إلى عقد صلح بين سابور الثاني وجوفيان (364-363) يمكن الدولتين من التفرغ للدفاع عن حدودهما، فإن النشاط الروماني لحقن الاقتصاد الساساني لن يتوقف وقد اتخذ له أثناء فترة الصلح وسيلة جديدة تمثل في التسلل إلى اليمن عن طريق الأحباش المونوفيزيين. وإذا فإن اضطرار سابور الثاني الدفاع عن الامبراطورية الساسانية على كل الجهات وسعيه إلى منع اكمال عملية التطويق الاقتصادي مما اللذان يفسران إلى حد كبير ارتقاء اليد الساسانية إزاء قبائل البدو العربية ونتيجة لذلك ضعف إمارة الخيراء.

وإذا كان هذا وضع سابور الثاني الذي "كان يخلع أكتاف العرب ولذلك لقبه العرب ذو الأكتاف"¹⁵ فبالإمكان أن يتصور المرء وضع حلفائه أردشير الثاني (379-383) وسابور الثالث (383-388) وبهرام الرابع (388-

هذا الخطر الذي يهدد الدولة الساسانية على حدودها الأربع هو الذي حدد سياسة سابور الثاني منذ تسلم الحكم بصورة فعلية أي في ثلثينات القرن الرابع فشرع في دفع هذا الخطر مبتدئاً بالعرب البدو لقربهم من عاصمه: وكان أول شيء ابتدأ به شأن العرب فجهز إليهم العساكر وعهد إليهم أن لا يبقوا على أحد من لقوا منهم. ثم شخص بنفسه إليهم وغزاون ببلاد فارس فقتلتهم أمير القتل وهو أبو أمامة وأجاز البحر في طلبهم إلى الخط وتعذر إلى بلاد البحرين قتلاً وتقريباً ثم غزوا بعدها رؤوس العرب من قيم وبكر وعبد القيس فائضاً فيهم وأباد عبد القيس ولحق قلهم بالرمال ثم أتى اليمامة فقتل وأسر وخرب، ثم عطف إلى بلاد بكر وتغلب ما بين مملكة فارس ومناظر الروم بالشام فقتل من وجد هناك من العرب وطمّ مياهم¹².

وتذكر بعض كتب الأدب أن سياسة سابور الثاني إزاء العرب كانت متطرفة لم تفاجئ المعاصرین إذ أن كل ضعف في الدولتين الساسانية والرومانية ينجر عنه مدّ عربى نحو مناطق الشمال الخصبة فهذا لقيط بن يعمر الشاعر اليايدي الذي كان في خدمة الساسانيين يبعث على ما تروي الأخبار القديمة إلى قومه قبل الواقعه مخذراً:

يا أيها الراكب المزحى مطيته إلى الجزيرة مرتاداً أو منتجعاً
لاتلهكم إبل ليست لكم إبل إن العدو بعظام منكم قرعـا

إن اتساع حملة سابور تؤكد ما ذهب إليه المؤرخون من أن مملكة الخيراء فقدت دورها منذ موت أمرئ القيس بن عدي في التمارة بعد انضمامه إلى الرومان (ت 328) ولن تستعيد هذا الدور إلا في نهاية القرن الرابع وبداية الخامس على عهدى النعمان السائح (ت 418) وابنه المنذر (452-418).

هذا الفراغ هو الذي عبر عنه ابن خلدون عندما كتب:

ولي مكانه (يقصد امرئ القيس) أوس بن قلام العمليقي (...) ثم سار به حجاجاً بن عتيك بن جنم فقتله وولي مكانه (...) ثم ملك ...¹³.

12- المرجع السابق ص 348

13- المرجع السابق ص 349.

(399) الذين كانت فترة حكمهم فترة باهتة مقارنة بفترة حكم ساپور. فلقد حكم الأول البلاد مدة أربع سنوات كانت مثلاً للضعف من ناحية ولردد الفعل الدينية على سياسة تيودوس التبشيرية من ناحية ثانية. أما ساپور الثالث فقد حكم البلاد خمس سنوات اتسمت بالضعف كذلك وكان مصيره القتل. ولم يختلف مصير بهرام الرابع عن مصير أخيه فضربا بحياتهما مثلاً واضحاً عن الفرق الشاسع بين ما كان عليه أبوهما ساپور من قوة وهيبة وامتداد فترة حكم وما كان عليه من ضعف وقصر فترة حكم بل ضربا مثلاً على شبه القاعدة التي تقول إنه ما امتد سلطان ملك قاهر في الزمن إلا قصر ذلك من سلطان خلفائه لأن الحكم القاهر الطويل لا يسمح بنمو نبت سياسي حنكه التجربة فيرث الحكم وينميه. لذلك لن يستقر الحكم الساساني إلا على يد يزدجرد الأول (420-399) هذا الذي تسميه العرب "يزدجرد الأئم" وقد لا يكون له من "الأئم" غير سعيه إلى تجديد الدولة فاستقرت على عهده وباستقرارها عادت الحياة إلى إمارة الخيرة فبرزت شخصية النعمان الأكبر (ت 418) المشهور باللقب "الأعور" و"السائح" و"صاحب الخورنق" وكذلك شخصية ابنه المنذر (418-452) الذي كان له شأن في سياسة ايران الداخلية (تولية بهرام الخامس) والخارجية (مشاركته في حرب الروم 421-422). وحمدت غزوات العرب البدو في المنطقة إلى حين. وإن فاته يمكن القول أن حكم كل من تيودوس ويزدجرد لم يكونا غير محاولة لاعادة التوازن المفقود إلى كلا القوتين العظيمين.

الفصل الرابع

هيمنة القوى النابذة

إن حالة الانهيار الروماني الشامل نهاية القرن الرابع الميلادي هي التي تفسر سياسة تيودوس (395-395) الزمنية والدينية المتشددة. فقد حاول منذ أن تولى الحكم سنة 379 أن يحدّ من تردّي هذا الوضع فحافظ على التشريع في جزئي الامبراطورية الغربية وعاصمتها روما والشرقية وعاصمتها بيزنطة. ولكنه وزّع الحكم في الجزئين على ابنه هونوريوس (408-395) في روما وملحقاتها الأفريقية، خاصة وأركاديوس (395-408) في القسطنطينية وملحقاتها الشامية والمصرية.

هذا التثبت بوحدة التشريع في جزئي الامبراطورية عاشهه تشدد تيودوس في الحفاظ على الوحدة الدينية إذ كان هذا الامبراطور يؤمن إما عن إيمان صادق أو عن سياسة (جرياً على القاعدة التي سنتها قسطنطين) أن لا حق لغير الدولة في صياغة طريقة تفكير المواطنين فأمر بهدم كل ما تشمّ منه رائحة الوثنية واضطهد الفرق الدينية غير الارثوذوكسية ودعا إلى عقد جمع في القسطنطينية سنة 381 لم يكتمل فيه بتأكيد ما أقر في جمع نيقية من تساوي الأرب والأبن بل اضاف إليهما تساوي الروح القدس ورفع من شأن أسقف القسطنطينية عاصمة الامبراطورية الأولى. إن صورة تيودوس تبدو عند كثير من المهتمين بهذه الفترة قريبة من صورة الديانى المتغلب المدفع بدافع التقوى وحده إلى اضطهاد المذاهب غير السنوية. وهذا غوستاف لوبيون يشدد على تعصبه الدين:

عندما أصبحت المسيحية الدين الرسمي في القسطنطينية أمر الامبراطور تيودوس سنة 389 بهدم كل المعابد وأنصاب آلهة مصر القديمة وكل ما يمكن أن يذكر بها.¹

G. Lebon: La civilisation des Arabes, p. 156 - 1

الذي سيكون من ذلك الوقت فصاعداً مذهب الامبراطورية البيزنطية والذي يطلق عليه أحياناً وإن بمعنى غير ملائم اسم القيصرية البابوية.²

ذلك هو ذوبان الدين في الدولة. وعندما اعتير "لوميرل" أن اطلاق عبارة القيصرية-البابوية على الارثوذوكسية في غير محله فما ذلك إلا لأن "أسقف" روما لن يقبل بتوق الدولة البيزنطية إلى المهيمنة على الكنيسة وسيقود هذا الرفض إلى نشأة "البابوية". إن كل مجهودات تيودوس للحد من انهيار الدولة شرقاً وغرباً ومغارباً وتوحيد المواطنين دينياً ستذهب سدى إذ بلغ الداء عظام الامبراطورية خاصة في الجزء الغربي والمغربي منها.

فعلى عهد خليفة في روما هونوريوس (395-423) اضطر الرومان إلى الجلاء عن انكلترة (407) وشنّتْ ضغط الأفرنج الموريفيين على بلاد الغال ونهب ألاريك ملك الاستروغوط روما سنة 410 وسقطت إسبانيا في أيدي الفيزيغوط (410) واكتسح الوندال شمال إفريقيا وأسس جنزيريك Genseric أول ملوكهم (427-428) دولة أريوسية تضطهد المسيحية السنّية دامت قرناً من الزمان ولم تستطع حملات القديس أوغسطين الملتّبة على المهرّقات أن تمنع هذه النظريات الدينية المعادية بصفة عامة لفهم تأثيري للمسيح من التغلغل في مناطق قبائل لواثة والقراشيش وقبائل الأوراس التوميدية البربرية البعيدة عن مراكز المدن المتكتلة كفرطاج وبونه وطنجة.

أما على عهد خليفة تيودوس في بيزنطة أركاديوس (395-408) وتيودوس الثاني (408-450) فقد حدث في الشام ومصر من الانقسام الديني ما يعد الخطير الاريوسي الذي اجتهد تيودوس في محاربته أمراً ليس بالخطورة المزعومة إذ كان معتنقو الاريوسية أساساً من بربر الجerman أمّا الانقسام الجديد فقد مسّ ما أصبح يمثل ما تبقى في واقع الأمر من الدولة الرومانية أي ما سمى فيما بعد بالشرق العربي وهو أثرٌ لأجزاء الامبراطورية اقتصاداً وثقافة.

فقد وجدت مدريستا الإسكندرية وأنطاكية في هذه الفترة الحرجة من حياة الامبراطورية التي يصعب فيها الفصل بين ما هو هرطقة دينية ونزعه

ومثل هذا التفسير يخفف من تأثير ضغط العامل السياسي الدافع إلى مثل هذه الاجراءات ويدفعنا إلى التحفظ إزاءه. فقد كان تيودوس وهو يتولى الحكم يرى ضغط الحزب القوطي الأرياني الذي ينفي الوهبية المسيح يطال البلاط الامبراطوري ذاته حتى ان فالنس (364-378) الذي سبقه في الحكم اعتنق الاريوسية دون أن يقيه ذلك لا من الموت بأيدي فرع منهم هو الفيزيغوط ولا دون اشتداد ضغطهم على الجزء الغربي من الامبراطورية. أما فالنتيان الثاني (375-392) الامبراطور في روما فقد لقي مصرعه على يدي أحد جنرالاته من الأفرنج المسلمين على البلاط وكان على تيودوس نفسه أن يتدخل سنة 394 لإعادة الأمور إلى نصابها.

كما أن الشمال الأفريقي التابع لغرب الامبراطورية الرومانية المتهاوى كان يعصف به في هذه الأثناء وفي نوع من الوطنية الدينية المذهب البيليجياني الذي لم يتمكن جدل القديس أوغسطين ضده من انتشاره. وبالإيجانة باعتقادها أن الجهد الفردي ابتعاد الخلاص يتنزل إذا ما قورن بـ"النعمى" المنزلة الأولى لا يقود في نهاية الأمر إلا إلى التقليل من شأن الوسائل بين الله والانسان ومنها الكنيسة. والتقليل من شأن الوسائل لا يعني سياسياً إلا نوعاً من الاستقلالية.

بهذا الفهم وحده للعلاقة بين الدين والسياسة يمكن أن نفسر شدة اجراءات تيودوس في معاملة المذاهب النابذة فهو في سلوكه لا يعود أن يكون معتبراً عن السياسة التي سنتها قسطنطين وأفضت إلى هذه التبعية الدينية للدولة المميزة لما سيسمى فيما بعد بالارثوذوكسية والتي ما زالت الكنيسة الروسية خليفة بيزنطة على ما تدعى مثلاً عليها في القرن العشرين:

وفعلاً أعلن تيودوسيوس أن لا تسماح في الدين: إن للدولة ديناً إيجاريَا يحدد مقوماته الامبراطور ويفرضها على رعاياه. وبنـلـك أصبحت الارثوذوكسية والهرطقة مادة سياسية يقدر ما هي دينية أو بالأحرى اختلطت وجهتا النظر بعضهما البعض. وهكذا تأسس فيما يتصل بالعلاقات بين الكنيسة والدولة المذهب

وعندما أدان جمجم افسس نسطوريوس وأقاله من أسقفية القدسية لم يزد القضية إلا تعقيداً. فانتصار المونوفيزية (مصر) على الاريوسية (بيزنطية) ليس انتصاراً للارثوذوكسية الرسمية في نهاية الأمر ولا هو انتصار لروما إذ أن المونوفيزية (حتى إن أخذنا بالجانب الديني وحده) وهي "تلخّص على ضرورة الغرض من أهمية طبيعة المسيح الإنسانية لم تعد بعيدة عن القول أن ليس في المسيح غير طبيعة واحدة هي الطبيعة الإلهية. هذه هي المونوفيزية التي هي في بعض معانها نقىض المهرطقتين النسطورية والاريوسية³. ولذلك عندما أخذ بعض رهبان القدسية بالمونوفيزية تحول النزاع إلى نزاع بين روما والاسكندرية: روما تندد على لسان البابا ليون الكبير (440-461) بالمنصب المونوفيزي واسقف الاسكندرية الجديد ديوسقوروس يشجع عليه. ولم يجد الامبراطور البيزنطي كعادته، وسيلة للحسن في القضية غير الدعوة إلى عقد جمجم حديث في افسس سنة 449. وكما حدث في المجمع السابق تمكّن المونوفيزيون من ضمان النصر لذويهم فاتتهم خصومهم باستعمال وسائل أبعد ما تكون عن السلوك الاخلاقي القويم وسموا ما وقع في هذا المجمع "ملصقة افسس" (أي لصوصية افسس) رغم أن الامبراطور نفسه، حرصاً منه على الاحتفاظ بولاء مواطنيه في المشرق زكي ما أسف عنه هذا المجمع. ومات تيودوس الثاني سنة 450 والنزاع الديني على أشدّه، فبادر خليفة الامبراطور مارقين (457-450) بالدعوة إلى انعقاد جمجم مسكنوني رابع في خلقدونية (451) حضره سفراء عن البابا وانتهى بنقض قرارات "ملصقة افسس" وإقالة ديوسقوروس الاسكندرية وتحرير نص من وحي البابا في روما يعرف المسيح بأنه "واحد في طبيعتين" ويدين المونوفيزية. وإذا ما أن انتصف القرن الخامس حتى تحدّت معالم القطيعة النهائية بين مختلف المذاهب المسيحية:

- استعانت المونوفيزية الاسكندرية (الشرقية) في مرحلة أولى بروما (الغربية) لإدانة النسطورية (الشرقية).
- فرضت روما في جمجم خلقدونية وجهة نظرها فأدانت المونوفيزية.

3- المرجع السابق ص، 38

انفصالية، فرصة جديدة للصراع أثناء حكم تيودوس الثاني. هذ الصراع لم يتمثل هذه المرة في الموقف من طبيعة المسيح (هل هي من طبيعة الأب أم لا) وإنما في كيفية اتحاد الطبيعتين الإلهية والانسانية في شخص المسيح وذلك بمناسبة إعلان أحد بطارة القدسية المتأثرين بالمنهج الانطاكي المشبع أرسوططالية وهو نسطوريوس (428-431) عن اعتقاده أن طبيعة المسيح الإلهية والبشرية مستقلتان عن بعضهما البعض وأن الجانب الانساني فيه غالب على ما عداه إذ ليس المسيح في نهاية الأمر إلا بشرا تحول إليها. هذا الرأي اعتبره المونوفيزيون في الاسكندرية صياغة جديدة للأريوسية التي قارموها بضراروة. وقد دعم موقفهم من نسطوريوس إدانة أسقف روما سيليسين الأول (422-432) النظيرية النسطورية سنة 428 فطالب أسقف الاسكندرية كيريلوس (تـ Cyrille 444) أسقف الاسكندرية نسطوريوس إما بالتراجع فيما ذهب إليه وإما بالاستقالة وبذلك فتح الطريق لخصومة دينية سياسية لم يجد الامبراطور تيودوس الثاني سبيلاً إلى تطويقها في غير الدعوة إلى عقد جمجم مسكنوني ثالث هو جمجم افسس (441) للبت في المسألة.

إن ما يبدو قضية دينية فحسب ليس في الحقيقة كذلك. فالقدسية هي عاصمة الامبراطورية ومركز التقل الفعلي أما روما فالانهيار السياسي فيها قد أصبح واضحاً منذ بداية القرن وستسقط روما ذاتها سنة 476 تحت ضربات البرابرة فلا بدّ عندئذ من اجتهد الكنيسة فيها لملء الفراغ وأولى الخطى نحو هذا الدور الجديد هي تحقيق هيمنتها على بقية الكنائس في بيزنطية وانطاكيه والاسكندرية.

أما الاسكندرية فلقد نزّها جمجم القدسية سنة 381 المنزلة الأولى في المرتبة الكنسية فلا مجال ومنزلتها الرسمية على ما هي عليه أن لا يكون لها رأي حاسم في المسألة خاصة وإن الداعية إلى المنصب الجديد هو أسقف القدسية. إن هذا الفهم للقضية هو الذي يفسر انعقاد ما يشبه التحالف بين هذه الكنيسة وتلك في فترة ما وانحلّه في أخرى. ففهم المسألة دينياً فحسب لا يفي بالحاجة إلى الوضوح الكافي.

1958 كانت شامية الاتجاه لا يتجاوز بعدها الأفريقي السودان والجبلة والصومال فهي أفريقية جغرافيا شرقية الاتنماء وحدودها الثقافية الأفريقية تشق ليبيا ولا تتجاوزها ولذلك كانت ليبيا ممزقة بين المشرق والمغرب. إن هذا هو التفسير الذي نراه أكثر وجاهة هيمنة المونوفيزية حتى في بوادي الشام رغم بعد تراث القوم عن كل تجريد وجنائية.

لقد كان مارقيان وهو ينصر روما على ولاياته الشرقية مدفوعاً بأمل واه في امكانية الحفاظ على الجزء الغربي من الامبراطورية الرومانية وعلى شمال أفريقيا الصانع وقد اثبتت الأيام، بعد أن فرط في الشام ومصر، ما في سياسته من بعد عن الواقع.

كتب ديهل عن تمكّن الوندال من قرطاج وشمال إفريقيا:

جهزت روما والقسطنطينية أثناء القرن الخامس حملات قوية كثيرة ضد الملكة الونdale الخطيئة التي كانت أساساتها تهدد بلا هواة كل شواطئ البحر المتوسط. على التوالي حاول ماجوريان Majorien (461-457) أحد أكثر من مجلس من أراخر الأمراء على عرش روما حزماً وكذلك ليون الأول أمبراطور الشرق (457-474) بعده ببعض سنوات أن يقوض حكم جنتزيريك (477-428). غير أن محارتيهما لم تكلا بالنجاح. ففي سنة 460 لم يتح للأسلحة الجماعة في موانئ إسبانيا حتى الإبحار. أما حملة 468 فقد كانت بدايتها تبشر بالخير ولكنها انتهت في مياه قرطاج بكارثة مشهودة ذُ晦ت لسنوات طويلة بالاستropol البيزنطي وبماليه أمبراطور الشرق وأضطر زينون (474-491) خليفة ليون الأول ثُنت وقع هذا الفشل أن يعقد سنة 476 في اللحظة التي كان فيها الغرب يسقط نتيجة ضربات أودواكر Odoacre صاحباً بديعاً مع جنتزيريك.⁶

غير أن وهم مارقيان لم يكن سياسياً فحسب بل كان دينياً، فروما نفسها كانت تجهد منذ بداية القرن في مقاومة هيمنة بيزنطة الدينية عليها وما احتجاد أوغسطين فيما يتعلق بهذه المسألة إلا مساهمة في كسر الطرق السياسي

Etienne Drioton et Jacques Vandier: l'Egypte des origines à la conquête d'Alexandre, Paris, 7ème éd. 1989.

كما تحدّر الاشارة إلى أن الأمثلة عن الخلط بين الأعلام والألقاب كثيرة في كتب التاريخ القديمة ومن ذلك ذكر قيسار على أنه علم وذكر محيرا والحال أن محيرا تعني الراهن بالسريانية.

Charles Diehl: L'Afrique Byzantine, vol. 1, s.d., p. 4-6

وهكذا كانت الغلبة في النهاية لروما رغم انهيارها السياسي ولعاصمة الامبراطورية البيزنطية القسطنطينية وانهزمت "مدارس المحيط (الاسكندرية، انطاكي) فزاد ذلك من تفتتها إذ شهدت هذه الفترة بالذات داخل منطقة التأثير الانطاكي ولادة مذهب دين حول مار مارون (أي القديس مارون) في مدينة صور بدا محارباً للنسطوريه والمونوفيزية معاً وانتهى بتبني وجه من الكاثوليكية لن يكف وقد طعمه "بالفينيقية" عن نصرته طيلة همسة عشر قرناً.

ولعل هذا التفتت الذي شمل المنطقة التي ستسمي العربية فيما بعد كان واحداً من أسباب سرعة التمدد العربي الإسلامي في القرن السابع إذ رحبت أغلب المذاهب غير السنّة بالدولة الجديدة نكالة في مضطهديها الاورثوذوكس وأملاً منها في أن يكون الحكم العربي الإسلامي، ولقد كان كذلك إلى حد كبير طيلة حياته التي امتدت ثلاثة قرون، أكثر تساحماً دينياً.

إن القول بهذا العامل الذي ساعد العرب المسلمين في مشروعهم السياسي العسكري الذين يعني في نهاية الأمر أن ما رأى فيه مارقيانوس انتصاراً إنما كان على الأبعد انتصاراً للكاثوليكية وهزيمة حقيقة للارثوذوكسية. وفعلاً فإن بيزنطة بعد أن خسرت مواقعها في البلقان والخلط وفرنسا وإيطاليا وشمال إفريقيا أصبحت مهددة داخلياً في ما تبقى لها من نفوذ في الشام ومصر إذ رأت مدرسة الاسكندرية فيما حدث في جمع خلق دونية أكثر من مجرد صراع ديني ظرفي إذ ييدو أن كنيسة مصر تحملت في هذه الفترة عن اللغة اليونانية ل تستعمل القبطية.⁴

وفقد مصر يعني في الحقيقة فقد الشام إذ أن مصر منذ عهد الفراعنة⁵ (وقبل ذلك على ما نعتقد رغم فقدان المصادر) وحتى آخر تجربة سياسية سنة

4- المرجع السابق، ص 41 ونلاحظ هنا العلاقة بين قبط و (Egypte).

5- الفراعنة: يطلق في مصر القديمة على قصر الملك عبارة "الدار الكبير" التي تسمى بال المصرية parâa والتي تحولت بتأثير الأغريقية إلى "فرعون" الذي أصبح اسماً فضفاضاً يدخل ضمنه كل ملك مصرى سواء كان مينس من السلالة الأولى (2900 ق.م.) أو كان مثلاً رمسيس الثاني الشهير (1235-1298 ق.م.) معاصر الرعيم اليهودي موسى.

أنظر الصفحة 175 من كتاب:

الغربية الخاضعة للبرابرة الجرمان الذين يشبهون على عكس المشارقة "الصفحة البيضاء" دينياً التي يمكن أن "تكتب فيها الكنيسة الكاثوليكية ما تشاء" وفي فترة لاحقة من هيمنة الكنيسة على السلطة الزمنية ذاتها. وبذلك لن يكون تاريخ البلدان الغربية اللاحق غير سعي السلطة السياسية لاستعادة ما كان لها من شأن على عهد الرومان الوثنيين.

ان زيون (Zénon) الذي سيتسلم الحكم وقد وصلت الامبراطورية الى هذا الوضع الخطير سوف ينطوي الى خطورة التفريط في بلاد الشام ومصر وسيعنتن المونوفيزية سعياً منه إلى التقرير بين الدولة والمجتمع وسينبع الى حدّ ما في سعيه هذا. نقول إلى حدّ ما لأنّ حالة الانهيار هذه كانت كأنّها ملزمة لطبيعة الدولة في هذا العصر كما كانت عامة تتتجاوز الرومان الى دول أخرى معاصرة ومنها الدولة الساسانية الخصم واذا كان هناك فارق يستحق الذكر بين الأخطار التي تهدد الدولتين فهو يتمثل في نوع الجنس الذي كان يستعد للانقضاض على الدولة الساسانية اذ هو في الحالة الساسانية تركي لموقع ايران الاسيوى القريب من الاحتياطي البشري التركي الضخم الذي كان قبل هذه الفترة وأناعها وبعدها (وسيجرب القرشيون ذلك طيلة حكمهم الذي دام ثلاثة قرون) يمثل الخطرا الكامن سواء على الصين والهند أو على كل الدول التي تأسس في الشرقي الأوسط والأدنى.

ولقد شهدت الامبراطورية الساسانية بعد حكم الاباطرة الثلاثة أردشير الثاني وسابرور الثالث وبهرام الرابع المتسم بالضعف والاضطراب نهاية القرن الرابع عودة الى ما يشبه التجدد على عهد يزدجرد الأول (399-420) الذي بلغت مواقف المؤرخين منه حدّ التناقض الصارخ : ففي حين يعتقد المسيحيون قراره بفتح رعایاه سند 420 حرية المعتقد يميل المؤرخون المسلمين بمحاراة للساسانيين المتأثرين بقتله من رجال الدين المحسوس الى رسم صورة قاتمة له. كتب عنه ابن خلدون :

كان (يزدجرد الاول) فظاً غليضاً كثير المكر والخداعة، يفرغ في ذلك عقله وقوّة معرفته، وكان معجباً برأيه، سيءُ الخلق، كثيرُ الحدة، يستعظمُ الرّلة الصغيرة ويردّ

البيزنطي عليها. "فملكة السماء" La Cité de Dieu (413-417) كانت تسعى إلى عرض تاريخ الإنسانية منذ نشأتها إلى القرن الخامس. وهي لا تخضع في سعيها هذا ما يمدها به التاريخ الوثني (الاغريقي واللاتيني) والعهد القديم والجديد على حد سواء من معطيات إلى معاير عقلية. إن غاية هذا السعي هي ثبات وجود رهان هو وجود الله، وهو أكثر أهمية بكثير من رهان البشر المحكوم بالتقاليد التي تميز مملكة الناس. هذا الرهان الالهي يندرج ضمن مسار جماعة المؤمنين الروحي وضمن مسار الكنيسة: إن خلق الكون والمخطيئة الأصلية والخلف الالهي اليهودي والقربان وتأسيس الكنيسة، كل هذه الأحداث ليست إلا مراحل ضمن هذا المسار الروحي الذي إذا كان بامكان الانسان أن يتبع فيه أعلى العناية الالهية في مكانه كذلك أن يسهم فيه بما يقدم من عمل ملائم للعقيدة.....الغبطة . وإذا كان الفكر الاغريقي قد اخذ له من الدائرة مثلاً للزمنية فإن أوغسطين قد فهمها للزمن على أنه تاريخ خطى ذو بداية (ابتداء العالم) ونهاية (البعث) وأنه هو تاريخ الإنسانية ذاتها. هذا التاريخ اخذ شكل تاريخ انسان فرد يستند إلى أحداث فريدة ويتضمن معنى أي له وجهة وأن له دلالة في الان نفسه. وبهذا الفهم للزمنية يكون أوغسطين قد قدم النموذج الذي ستنتجه على متواله لاحقا كل فلسفات التاريخ بما فيها تلك التي تعد أكثر الفلسفات قولًا بالمالدية العلمية⁷.

إننا انضباطاً للموضوع لنتناول ما يتصل به التطور الأغسطسفي من إمكانات حقيقة لتغيير نظرة الإنسان إلى التاريخ ومن ثم إلى الحياة ولكننا على العكس من ذلك نؤكد على المنزلة التي نزل فيها أوغسطين الكنيسة بصفة خاصة والسماء بصفة عامة فلا سلطة زمنية بامكانها أن تطال تعالى الكنيسة وتعالى السماء وهذا يعني أن على الامبراطور أن يستغل بما له من صلاحيات في الجيش والاقتصاد... وأن يترك "ما لله" لنواب المسيح مثلين في أساقفة روما. وفي ظل الفراغ السياسي في البلاد الغربية فإن مثل هذه الدعوة لا يمكن إلا أن تقود إلى تضخم دور الكنيسة الكاثوليكية الروحي في فترة أولى في كل البلاد

ولقد سار بهرام غور سيرة أبيه في التسامح الديني إزاء الرعايا على كره من رجال الدين الجخوس، ومنع اللجوء السياسي إلى كل الديانين الخارجين عن أرثوذوكسية بيزنطة وأشهرهم نسطوريوس الذي التجأ بعد أن أقاله جماعة أفسس سند 431 من منصبه إلى ايران وأسس فيها الكنيسة النسطورية.

على أنه كان على بهرام الخامس كما كان شأن أسلافه أن يتصدّى للضغط العسكري الخارجي مثلاً في البيزنطيين وتابعهم من الأرمن المسيحيين وفي المثيرين من الهيطل على حدوده الشرقية وكذلك في البدو من العرب الذين تقوى شوكتهم بضعف الحيرة أي بضعف الدولة الساسانية ولقد حصل بهرام الخامس في حروبه على ما طلب من عون لخمي عربي ظهر خصوصاً أثناء غزو المنذر أمير الحيرة الروم سنة 421 بجيش مختلط لخمي ايراني.

وعندما مات بهرام الخامس وخلفه في الحكم يزدجرد الثاني (438-457) كانت المنطقة كلها تشهد مخاضاً ينبع بتحولات كبيرة إضافة إلى الصراع التقليدي بين الساسانيين والترك والروم كان جنوب الجزيرة العربية يعيش فترة هلع وهجرة حارفة نتيجة انهيار جزء من سد مأرب:

في نقش يرجع تاريخه إلى ما بين عامي (449-450) ما يفيد أن سد مأرب قد أصيب مرتين بتلف شديد بسبب مياه الفيضان في عصر الملك الحميري (شرحيل يعفر)، ابن أبي كرب يسعد الذي كان يحكم البلاد في الفترة الواقعة بين 425-455¹⁰.

اما على المستوى غير العكسي والاقتصادي فقد مدّ تسامح بهرام الخامس التيارات الدينية المتصارعة في ايران بنفس حديد فازداد الجدل الديني انتشاراً ولم يعد مقصوراً على الفرق المسيحية بل تعداها إلى جدل مسيحي - مزدي. يورد كريستنسن في هذا السياق حدلاً دينياً بين أتباع زرادشت والمسيحيين فيو كد الاولون "ان النصارى على خطأ عندما ينسبون الخير والشر إلى ارادة واحدة وعندما يؤكدون أن الله غيور وأنه خلق الموت وأدان الناس لا لسبب إلا لأن تينة واحدة سقطت من شجرة. إن غيرة كهذه لا توجد بين البشر فكيف يمكن

10- التجار - علاقة ... ص 13-14.

الشفاعة من أهل بطانته، متهمًا للناس، قليل المكافأة، وبالجملة فهو سبيء الاحوال منهما (...) واشتدّ على الاشراف بالاهانة، وعلى من دونهم بالقتل. وبينما هو جالس في مجلسه يوماً اذا بفرس عابر لم يطق أحد امساكه قد وقف بيابه فقام اليه ليتولى امساكه بنفسه فرمحه فمات لوقته لاحدي وعشرين سنة من ملوكه⁸.

إن بامكان المرء أن يستخرج مما كتب ابن خلدون، وبغض النظر عن الصبغة الخرافية التي تبدو في البعض منه، إشارات إلى العداوة التي كانت طبقة الاقطاعيين ورجال الدين تكتها ليزدجرد بعد أن "اشتد أمره على الأشراف بالاهانة، ومن دونهم بالقتل" وهذه الطبقة استغلت فترة الضعف الفاصلة بين نهاية حكم سابور الثاني وبداية حكم يزدجرد الأول (379-399) لتقضم صلاحيات الدولة المركزية، سيدو عداوها أولاً في قتل يزدجرد وثانياً في سعيها إلى الحيلولة دون تولي ابنه بهرام غور الحكم (420-438).

فالرأي الأكثر وجاهة هو الذي يجب أن يعكس الصورة فيرى في فترة حكم يزدجرد وابنه بهرام (أربعين سنة) فترة استعادت فيها الدولة الساسانية البعض من قوتها السابقة، ومن القرائن الدالة على ذلك الإجماع الحاصل حول استعادة الحيرة الخمية الساسانية دورها القديم على عهد النعمان الأكبر (ت 418) وابنه المنذر الأول (418-464) فإذا التحالف اللخمي - الساساني يتجاوز مجرد الولاء السياسي إلى ما يشبه العلاقة الخمية: "يظهر ذلك في الألقاب التي منحها يزدجرد النعمان الأكبر ("مكثر بهجة يزدجرد"، "النعمان الأكبر") على ما يقول كريستنسن وفي اختيار يزدجرد النعمان مرّياً لابنه بهرام الخامس إذ نشأ هذا الملك الساساني "بلاد الحيرة مع العرب، أسلمه أبوه اليهم فربّي بيدهم وتكلّم بلغتهم"⁹. وعندما قتل الاشراف الساسانيون يزدجرد واحتدهوا في تنصيب ملك على ايران من غير أبناء خصمهم القتيل قاد المنذر قوة مكونة من الايرانيين واللخميين هددت المدائن وفرضت على الأشراف الساسانيين بهرام الخامس ملكاً.

8- ابن خلدون: كتاب العبر، ج 3 ص 353

9- المرجع السابق، ص 353

الزرادشية (الخوسية) في شيء اذ عناصرها مانوية مسيحية كما يمكن القول ان من أسباب ترحيب الساسانيين بالسطورية تغلب هذا المذهب طبيعة المسيح البشرية على ما عادها ورفضه القول أن العذراء أم الله إذ هي أم عيسى فحسب بل يمكن القول ان "طبيعة" الزرادشية هي التي تفسّر احتفاء كثير من المفكرين الغربيين بها زمن هيمنة الوضعية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر خاصة على جزء غير قليل من البلاد الاوربية الغربية. لقد رأى يزدجرد الثاني في اتجاه الجدل هذه الوجهة المخاربة للدين الرسمي الساساني خطراً اضافياً على الدولة فعدم اتخاذ اجراءات ضدّ المسيحيين وحتى اليهود المقيمين في بلده والذين سيشهد هذا القرن والقرن الذي يليه اكمال نشاطهم الموسعي لبلورة أساس تراثهم الثقافي مثلاً في تلמוד بابل ذي العشرين جزءاً والذي يعتبر مع تلמוד القدس الذي يصغره حجماً دائرة معارف الثقافة العربية التقليدية¹³ ان سلوك يزدجرد الثاني الديني يبدو في نظرنا صادراً عن نظرية سياسية لا عن ردة فعل نفسية او دينية كما يذهب الى ذلك بعض من أخذناوا بفكرة أن العامل النفسي هو الحكم في سياسة الشرقيين (وأين تقف حدود الشرق؟) وأن العامل العقلي (والى أي حدّ يمكن فصل العقلي عن النفسي؟) هو الحكم في سياسة المتشمّين الى الحضارة اليونانية الرومانية.

إن هذه الفترة التي رأيناها بعض ملامح الصراع الديني فيها كانت تحمل في طياتها أكبر خطر هدد الدولة الساسانية في هذا القرن تماماً كما هددت المانوية الدولة في القرن الثالث وهو الخطر المزدكي الذي سيتجلى في عهد خلفائه وسيمتدّ حتى الثلث الاول من القرن السادس. واذا كان يزدجرد قد حدّ من النزيف أثناء فترة حكمه فان خلفاء هرمز الثالث (459-457) وفيروز الأول (459-484) وولاش (484-488) سيغرقون في أزمة انتهت بكارثة حقيقة على البلاد فأصبحت تابعة للترك مستسلمة للبيزنطيين على ضعفهم فاقدة لكل سيطرة على العرب البدو في بلاد الرافدين والخليج بل ستسقط محظيهم

Chouraqui (André) - Histoire du Judaïsme - Paris, Puf., 1968 p. 41. - 13

أن تكون بين الله والانسان. ومن أحطائهم (أي المسيحيين) كذلك أن الله الذي خلق السماء والأرض حلّ بالارض وولد من عذراء تسمى مريم بعد أن كانت زوج رجل يسمى يوسف فالمسيح انتا هو في الحقيقة ابن لـ (فاتور) ولد اثر علاقة زنا. ثم ان رؤساء النصارى الروحيين يقولون أن أكل اللحم لا يعدّ اثماً وهم مع ذلك يعرضون عن أكله ويقولون أن الزواج مباح وهم مع ذلك يعرضون عن النظر إلى النساء ويقولون ان من يجمع الكنوذ يرتكب اثماً ويشيدون غاية الاشادة بالفقير. هم يغدون بالخنزير ويغضبون من الا زدهمار. هم يزدرؤن الثروة ويفضلون الاشياء المبتذلة على الاشياء الشفينة. هم يمتدحون الموت ويختقرون الحياة. هم يستنكرون ولادة الاطفال ويتحسرون على العقم".¹¹

أما المسيحيون فيرون على الزرادشيين :

"أَنَا لَا نعبد مثلِّماً هُوَ شَائِكُ الْعَنَادِرِ وَالشَّمْسِ وَالقَمَرِ وَالرِّيَاحِ وَالنَّارِ، وَلَا نَقْدِمْ قَرَابِينَ لِكُلِّ هَذِهِ الْآلهَةِ الَّتِي تَذَكَّرُونَ فِي الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ، فَنَحْنُ، وَهَذَا مَا تَعْلَمْنَا، نَعْبُدْ بَشَّاتِ الْإِلَهَاتِ وَاحِدًا حَقِيقِيَاً خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تَحْتَوْيَانِ".¹²

ان التناقض واضح بين الديانتين: ديانة تضرب عروقها في الارض لأنها ظهرت في حضارة حاكمين هيمروا على العالم القديم زماناً طويلاً وديانة تدعوا إلى قطع الصلة بالارض لأنها ظهرت عند مضطهددين أصبح الانكفاء النفسي والعقلي دينهما.

ان المآخذ على المسيحية قريبة من المآخذ على النبي ماني (و كذلك على النبي الذي سيظهر بعد بعض العقود : مزدك) الذي قتل لأن في دعوته تهديداً للمجتمع الساساني القائم الذي تحفل زرادشتيته بالحسد والارض والولادة والخصب وتعادي أيها معاداً كل مظاهر الزهد والتتصوف والتshawām. ولذلك يمكن تكرار القول ان دعوة الشاعر : "لدوا للموت وابنوا للخراب" ليست من

Christensen - L'Iran... p. 282. - 11
12- المرجع السابق ص 218

الحيرة في أيدي الكنديين الحضريين، هؤلاء العرب الجنوبيين الذين لا يمثلون غير جزء صغير من الجماعات البشرية المائلة التي دفعها انهيار الوضع الاقتصادي جنوب الجزيرة الذي اختزله الروايات القديمة في تصدع بعض الاجزاء من سد مأرب والضغط الحبشي معالي البحث عن مجال حيوي في مناطق الخصب الشمالية تماماً كما يدفع اليوم ظهور النفط في الخليج والسعودية الى هجرة اليمنيين نحو هذه البلاد.

ان وضعنا كهذا يتطلب رجال حكم على مستوى عالٍ من الكفاءة للحدّ على القل من انهيار الدولة ولم يكن خلفاء يزدجرد كذلك : فما أن مات الشاهنشاه حتى اندلعت الحرب بين ابنيه هرمز الثالث وفiroz وانقسم المجتمع الايراني بين مؤيد لهذا ومؤيد لذاك ومالت الكنيسة الجوسية ذاتها الى فiroz في حين اضطاعت أمهما بالحكم في المدائن طيلة هذه الحرب الأهلية التي انتهت بأسير فiroz أخيه ثم قتلته والانفراد بالحكم. ولقد تعاقبت على الامبراطورية الساسانية أثناء فترة حكم فiroz الخطوب :

- حدود شمالية وشرقية مهددة بالغزو التركي.

- حفاف طويل نتجت عنه مجاعات مستمرة في الامبراطورية.

- تكاثر حالات التنصر في الطبقات العليا من المجتمع.

ان الصورة التي كانت عليها القوتان العظميان في الثلث الاخير من القرن الخامس هي صورة انهيار شامل ولم تكن قد توفرت هذه المرة أيضاً الظروف الملائمة لظهور دولة جديدة تحمل مخل دول العالم القديم المنهاج. فكان لابد من انتظار قرن كامل ونصف القرن حتى يحدث ذلك مع الدولة العربية الاسلامية.

الفصل الخامس

الهرطقات الرسمية

حاول الاميراطور زينون (474-491) وهو يتسلم الحكم أن يسلك سياسة واقعية توثق العلاقة بين الدولة البيزنطية ومقاطعاتها في الشرق الأدنى فاعتنق المونوفيزية مثراً بين بيزنطة وروما انشققاً دام حتى عهد جوستينيان وأمتحن النساطرة فهاجروا إلى البلاد الساسانية يحملون معهم كتب أرسسطو وجاليوس Gallien ودسكوريديس ويترجمونها إلى السريانية والكلدانية ناشرين بذلك الثقافة الاغريقية في بلاد الرافدين الساسانية. أما على المستوى السياسي، فقد عقد صلحًا "أبدياً" مع الوندال في قرطاج رغم ما كان يعرف من شدة اضطهادهم للكنيسة الكاثوليكية على عهد هونيريك Huneric (477-484) خاصة وما بدأ يظهر عليهم من ضعف استغله قبائل البربر من لواثة في ليبيا والفراشيش Frexès في الوسط التونسي وقبائل جبال الأوراس التوميدية، إذ لم تكن بيزنطة في وضع يمكنها في هذه الفترة من كبح التمرد البربرى الخطير. إن هذه القبائل وغيرها من القبائل البربرية لم تكن، شأنها في ذلك شأن القبائل القحطانية والعدنانية في الجزيرة العربية لترتضخ للسلطة المركبة إلا عندما تكون هذه السلطة على قدر كاف من القوة وهي تستغل فرصة كل ضعف يجدون على الدولة لللانتقاض عليها. كتب شار ديل عن هذه القبائل:

في إل جانب سكان المقاطعات الذين يظهرون عداوتهم للوندال أو يكت Suffونها، لم يكن موقف القبائل البربرية أقل إزعاجاً. ذلك أنه إذا كان جنريريك Genseric (428-477) الصلب قد فرض سلطته عليها وأشار إليها في غرواته الحربية فإنها سرعان ما تخلصت من سيطرة خلفائه. ومنذ حكم هونيريك Huneric (477-484) أعلن جبليو الأوراس استقلالهم من دون أن يتمكن الوندال من الفتك في سعادهم. وقد سلك بعد ذلك مسلكهم أهالي الحضنة والضيبيان وكبار رؤساء القبائل في مختلف أجزاء موريطنانيا. فلم يعد يربطهم باللوندال في أحسن الحالات غير

كما أن احتلال الأوضاع جنوب الخزيرة دفع كندة الحضرمية إلى الهجرة نحو الشمال فحلت محل ملوك الخزيرة في بلاد الرافدين وشمال الجزيرة ودفعت الغسانيين وهو فرغ من الأزد إلى الاستقرار على الحدود البيزنطية جنوب الشام سنة 490 تقريباً فسيطرلوا على القبائل اليمنية التي سبقتهم إلى الاستقرار في المنطقة وعقدوا مع البيزنطيين سنة 502 - 503 اتفاقاً كتب عنه ابن خلدون الذي أكثرنا من الاستشهاد به لضمون الشواهد لا بسبب ما يتصل بالتاريخ للأحداث إذ لا يجب الاعتداد بما ورد عنده في هذه المسألة مما يتصل بالفترة موضوع الدراسة.

تفرّدوا بملك الشام وذلك عند فساد كان بين الروم وفارس فحاف ملك الروم ان يعيثوا عليه فارساً. فكتب اليهم واستدناهم (...). وكثيراً بينهم الكتاب على أنه إن دههم أمر من العرب أبدى لهم بأربعين ألفاً من الروم وإن دهمه أمر أبدى غسان بعشرين ألفاً وثبت ملوكهم على ذلك وتوارثوه³.

ويبدو أن مثل هذه الغزوارات هي التي دفعت زبنون إلى تعضيد حكم الغساسنة جنوب الشام بحكم موالي في مكة بعد أن عجزت خزانة عن السيطرة على الأوضاع فدعم قصي أحد رؤوس القریشيين في فرض زعامته على مكة. وكل آراء المؤرخين تجمع على أن قريشاً تحولت في هذه الفترة المضطربة بالذات وفي ظل الظروف التي وصفنا من البداوة إلى الاستقرار بمكة. كتب ابن خلدون عن هذه الحادثة :

فلما كان العام الذي أجمع في قصي الانفراد بولاية البيت وحضر أخوته من عذره (القططانية المسيحية الموالية للبيزنطيين) تعرض لبني سعد أصحاب صوفة في قومهم من قريش وكتانة وقضاعة عند الكعبة. ثلثاً ووقفوا لللاحزة قال : "لا نحن أولى بهذا منكم، فتاجروا وغلبهم قصي على ما كان بيأيديهم وعرفت خزانة وبنوا بكر عند ذه أنه سيعنعم من ولاية البيت كما من الآخرين فتاجروا عنه وأجمعوا لحربه، وتاجروا وكثراً القتل، ثم صالحوه على أن يمحموا من أشرف العرب، وتسافروا إلى يعمر بن عوف بن كعب بن عمرو بن عامر بن ليث بن بكر بن عبدمنا ابن كنانة فقضى عليهم قصي في البيت وفرّ بمحركه⁴.

3 - ابن خلدون ... العبر، م 3 ص 583.
4 - ابن خلدون ... العبر، م 3، ص 692.

رابطة التبعية. ثم إنهم خطوا خطوة أخرى يشجعهم على ذلك عجز الوندال عن عقابهم فإذا القبائل الموريطانية تنزل إلى الأرضي المتقطعة الحصون الرومانية المهجورة التي كانت تمثل حاجزاً لها وتعيش في هضاب نوميديا العليا ولا يمكن هونزيريك من الحصول دون غزوتها الضاربة.

أما قبائل طرابلس في عهد ترانساموند Transamond (496-522) وقبائل تونس الوسطى في عهد هيلدريريك Hilderic (523-530) فقد أخلفت بالقوات الملكية بعد أن تمردت هي بدورها هرميتين متاليتين.

وإذ فإنه ليس بإمكان جيلمير Gélimer (530-534) أن يغول في دفع البيزنطيين على هذه هذه القبائل. لقد كان الموريطانيون يرثون الأحداث في حياد لا يبعث على الاطمئنان، مهيمين للانضمام من دون تردد (أو وحسر ضمير) إلى الفريق الغالب¹.

إن كلام دليل يتعلق بالبربر ولكن يكفي أن نضع مكان لواحة والفراشيش قبائل كندة الحضرمية أو حمير اليمنية أو قريش المحازية للحصل على صورة واضحة عما كانت عليه أوضاع المستعمرات البيزنطية والساسانية في نهاية القرن الخامس وبداية القرن السادس. فشعور زينون بأمكانية انهيار الدولة البيزنطية انهى تماماً هو الذي يفسّر عقد صلح مع الوندال منكري الوهية المسيح والختفين في قرطاج بـ "الخلي" الامبراطورية، رمز السلطة العليا، التي استولوا عليها عندما نهب جنزيريك روما². كما يفسّر اعتناقه المونوفيزية "منذهب المصريين والشوم" بكل ما يعني ذلك من خروج عن قرارات مجتمع مسكونية (علمية) أشرف الأباطرة البيزنطيون أنفسهم على انعقادها : فقد كان الامبراطور يحتاج إلى قدر معقول من الاستقرار في الشرق الأدنى وفي البحر الأبيض المتوسط عامة بعد أن أصبح الاستقرار أثراً بعد عين. ويكفي أن نشير إلى بعض الأحداث المتعلقة بالعرب في هذه الفترة والفترة التي تليها توضيحاً لما نقول. فحرب البسوس المشهورة في كتب الادب حدثت سنة 490 أما أكبر غزوتين عربيتين على مناطق النفوذ البيزنطي في الشام فقد حدثت أولاهما سنة 502. أما الثانية التي بلغت في امتدادها القدس وأجبرت جوستينيان على الأمر بتحصين الأديرة فقد حدثت سنة 529.

1 - Charles Diehl, L'Afrique Byzantine, ص 12.
2 - المرجع السابق ص 5.

لقد كانت الأنشطة المتعلقة بالبيت موزعة على أكثر من مستفيد فانفرد قصي بها جياعا⁵:

فكان (قصي) أول من أصاب من بني لوبي بن غالب [بن فهير: العدناني] ملكاً أطاع له به قومه، فصار له لواء الحرب وحجابة البيت ويتمنى قريش برأيه فصرعوا مشورتهم إليه في قليل أمورهم وكثيرها، فاخذوا دار الندوة ازاء الكعبة في مشارورتهم، وجعلوا بها إلى المسجد فكانت مجتمع الملا من قريش في مشارورتهم ومعاقدهم، ثم تصدى لاطعام الحجاج وسقاياتهم لما رأى أنهم ضيوف الله وزوار بيته، وفرض على قريش خراجاً يؤدونه إليه زيادة على ذلك كانوا يرددونه به فجاز شرفهم كلهم وكانت الحجابة والسكنية والرفادة والندوة واللواء له⁶.

وإذن فإذا كان يمكن الحديث عن ملك عربي حنبوبي منذ الالف الاول على الأقل قبل المسيح وعن الدول المعنية ثم الحميرية فإنه لا يمكن الحديث عن بنور حكم عربي شمالي الا نهاية القرن الخامس وبداية السادس الميلاديين أي بالضبط عند اندثار حكم العرب الجنوبيين واستحاحوا كندة الحضرمية أن تتتجاهل هذا المسار التاريخي فقتل ملوكيها جميعا.

لقد استطاع زينون بهذه السياسة أن يحدّ من تقْتُل الدولة وقد تابع خليفته أنساس (941 - 518) سياسة الدينية فتوّقت العلاقات أكثر مما كانت عليه في السابق بين الدولة البيزنطية ومواطنيها المونوفيزيين. ولا يدرو، في نظرنا، أن ما يذكره كثير من المؤرخين الغربيين عن امتحان خليفي أنساس الامبراطورين الألباني الأصل جوستين الأول (518 - 527) وجوستينيان (518 - 565) الذي شارك قريبه في الحكم أولاً ثم خلفه فيه بداية من 527 المونوفيزيين كان سياسة قارة واضحة وعامة ذلك أنه أذا كانت المراجع تشدد على إيمان جوستينيان وتقواه وامتحانه الاريوسية بعد انهاء حكم الوندال في شمال افريقيا سنة 534 فما ذلك، سياسياً، الا ان الاريوسية كانت منصب دولية تم القضاء عليها. أما فيما يخص امتحان المونوفيزيين، نواة الدولة في الشرق الأدنى،

5- الحجابة : أن تكون مفاتيح البيت عنده فلا يدخله أحد إلا بإذنه / السقاية : سقاية زمز / الرفادة: طعام لأهل المواس / الندوة: الاجتماع للمشورة والرأي في "دار الندوة" / اللواء: يعني في الحرب لأنه كان لا يحمله عندهم إلا قوم مخصوصون
6- ابن خلدون ... العبر، م 3، ص 693.

فالقضية تحتاج إلى تساؤل : فهذا حليفه الغساني المونوفيزى جنوب الشام الحارث بن جبلة (527 - 569) يستقبل بطريق انطاكيه الذى دعاه إلى التراجع عن المونوفيزية فرفض دعوه بشكل عميق الدلالة حرص أحد الكتاب المتعصبين على كل ما يعد هرطقة على وصفه :

"روى ميخائيل السوري أن أفرام بطريق انطاكيه زار الملك الغساني المونوفيزى الحارث بن جبلة سنة 538 بغية اقتحامه بالأحد بما تقرر في جموع خلقهونية . وقد قدم الحارث إحراجاً للطريق طعاماً يتكون من لحم الجمل فحسب فرفض أفرام أن يأكل منه . فما كان من الحارث إلا أن قال له : "كيف تؤدي أجbar على القبول بمذهبك إذا كنت تعتقد أن الأكل من "لحمي يدنسك"؟".⁷

بل إن هذه الفترة ستشهد ولادة العقوبية (نسبة إلى يعقوب البرادعي Baradée، الوجه الشامي من المونوفيزية).

ان الذهاب مذهب من يقول بامتحان المونوفيزية لا يسمح بفهم العلاقات البيزنطية الحميرية اليمنية مثلاً في هذه الفترة ولا كيف زود جوستين وجوستينيان النجاشي الحبشي المونوفيزى كلب⁸ Kalab بالعدة التي مكتبه من احتلال اليمن سنة 525.

ان العوامل الاقتصادية والسياسية ضرورية لفهم ما يبدو أنه سياسة دينية فحسب . ومثال اليمن الحميري يعد أفضل الأمثلة على ذلك: فهذا البلد يقع في طريق تجارية حساسة بالنسبة إلى الامبراطورية البيزنطية وكان يعيش في النصف الثاني من القرن الخامس أزمة اقتصادية خانقة وتقلاصاً في هيمنة الحميريين في اليمن على بحران وعدن وحضرموت وضمار التي كان لها ملوكها المتهيئون دائماً للتمرد والاستقلال سبباً هجرة الكنديين الحضرميين أصهار الحميريين إلى الهجرة نحو الشمال الخصب . وسقوط الحكم الحميري نهائياً في الثلث الأول من القرن السادس اذ ما ان مات شرحبيل يعمر ابن أبي كرب أسد سند 455 حتى تالت الانتفاضات وانتهى الامر بأن "ملك لختعة ولم يكن من أهل بتن

المونوبيين بالشكل الذي تحدثت عنه الكتب التمجيدية اذ كانت الديانات السماوية تتحدى في كل العصور مطية للسيطرة على الأرض. واذن فإنه يمكن القول ان سياسة زينون رغم ما أدخل عليها جوستين وجوستينيان من تشذيب قد آتت أكلها فلقد استقر الوضع نسبياً جنوب الشام ولم يغيب أخناد قصي أهل البيزنطيين فيهم فالزموا الحباد وانهمكوا في التجارة فكانوا أكبر المستفدين من اندثار القيمة الحميرية:

ثم ان المطلب هلك بدمان من اليمن، فقام بأمر بي هاشم بعده عبد المطلب بن هاشم وأقام الرفادة والسعادة للحجاج على أحسن ما كانوا يقيمونه عَكْة من قبله، وكانت له وفادة على ملوك حمير (حتى سنة 525) والحبشة (بعد هذا التاريخ).¹¹

هذه السياسة بعيدة النظر لم تتوفر للدولة السياسية طيلة هذه الفترة وحتى عصر كسرى أنو شروان (531 - 579) رغم أن الوضع الذي وصفنا في الفصل السابق (الخطر الهبيطي في الشرق والجماعة التي سببها حفاف دام سنوات وكثرة حالات التنصر في الطبقات العليا من المجتمع) كان يحتاج إلى سياسة بعيدة النظر تحدّى من الانهيار الاجتماعي والسياسي ظهرت نتيجة هذه الوجوه العديدة لأزمة المجتمع السياسي الدعوة المزدكية الوثيقة العلاقة بمانوية النبي ماني في القرن الثالث الميلادي رغم بعض الاختلافات الثانوية ذلك أن المزدكية كانت تختلف عن المانوية في اعتبار "أن الظلمات لا تتصرف، على عكس النور، عن طوعية وعن قصد أنها عشوائية وصادفة وبذلك لا يكون الامتزاج بين النور والظلمات الذي ولد منه العالم المادي كما جاء في دعوة ماني، نتيجة تدبير وإنما نتيجة صدفة عميماء. وازن فغلبة النور تبدو أكثر ظهوراً في المزدكية مما هي في المانوية وهذا يعني أن الله الخير (النور) قد هرم الاله الشرير (الفللمات) ولذلك فلا بد من عبادة الله القاهر. غير أن هذا النصر الاهلي لم يكتمل إذ مازال العالم المادي الذي هو خليط من العنصرين الأساسية موجوداً

8- ابن خلدون ... العبر، م 3، ص 107.
9- قرآن (البروح، 3-7).

10- ابن خلدون ... العبر، م 3، ص 115.

11- المرجع السابق، ص 696.

المملكة. قال ابن اسحق : ولما ملك ختيعة غلب عليهم وقتل خيارهم وعبث برحالت بيوت المملكة منهم. قيل انه كان ينكح ولدان حمير، ويريد بذلك أن لا يملكون عليهم، وكانوا لا يملكون عليهم من نكح (...) ثم وشب عليه ذو نواس زرعه تبع بن تبان أسعد أبي كرب (...) وكان صبياً حين قتل حسان. ثم شبَّ غلاماً جميلاً ذا هيبة وفضل ووضاعة ففتاك بلخيطة في خلوة أراده فيها على مثل فعلاته القبيحة، وعلمت به حمير وقبائل اليمن فملكوه واجتمعوا عليه وحذف ملك التابعة وتسمى يوسف وتعصب ل الدين اليهودية".⁸
عندما نحذف الجانب الروائي الذي لا نعتقد أنه قريب من الاسطورة، يصبح ما كتب ابن خلدون واضحاً:

فاليمين كان يحكمه الحميريون من صنعاء بينما كانت تهامة وعدن وحضرموت وضمار لا تقبل بهيمنة الحميريين وعندما ضعف هؤلاء افتک أحد التمردين الحكم منها لفترة ثم استعاد ذو نواس الحميري الأصل اليهودي الدين الحكم واجهه في مقاومة خصومة ومهمن متصررون مدعومون بالحبشة وبizenطة فتكل بعصمهم وهم بنو الحمرث في بغراهن 518 على الصورة التي ذكرها القرآن في قصة " أصحاب الاحمرد" "قتل أصحاب الاحمرد. النار ذات الوقود اذ هم عليها قعود وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهدوا وما نعموا بهم الا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد".⁹

فمن الطبيعي أن يتوجه المسيحيون إلى مرجعهم الديني الحبشة وبizenطة لدفع هيمنة الحميريين المتهودين ومن الطبيعي كذلك أن يستغل جوستين وجوستينيان هذا الوضع في غياب قوة الردع السياسية فيسيطر على هذا الموقع الاستراتيجي المهام. وهذا ما حصل بالفعل سنة 525 فان "السفن قدمت على النجاشي من قيسار فحمل فيها الجيش ونزلوا ساحل اليمن واستجاش ذو نواس بآقیال حمير فامتنعوا من صريحه وقالوا كل أحد يقاتل على ناحيته فألقى ذو نواس باليد ولم يكن قتال".¹⁰ فلا مجال عندئذ للالعذر بما قيل عن امتحان جوستين وجوستينيان

ان الآراء تختلف في تحديد أسباب اعتناق قواد المزدكية هل هي أسباب عقدية أم سياسية. ولن تحل هذه المسألة في نظرنا تماماً كما لن تحل مسألة اعتناق قسطنطين المسيحيّة. على أن ما لا بدّ من الاشارة إليه هو أن انتصار المسيحية واتخاذها ديناً للدولة مرده إلى تغفل هذا الدين في مجتمع الامبراطورية على امتداد ثلاثة قرون وليس ذلك شأن المزدكية التي لم تتحذّر في المجتمع الساساني ولذلك ما لبث رجال الدين وكبار الدولة أن دبروا انقلاباً في البلاط الساساني فعزلوا قواد (496) ونصبوا أخاه جامسات (496 - 498) مكانه على العرش الساساني فهرب قواد من سجنه إلى الهيطل خصوم الساسانيين يطلب عنهم على اعدائه وقد مكنه من مبتغاه وفرضوا عليه ثناً لذلك اتّأوة جعلت من الدولة الساسانية دولة تكاد تكون تابعة للهيطل.

كتب ابن خلدون متقدّماً عن استنجاد قواد بالهيطل :

وَفَرَّ قُوَادٌ مِنْ حُبْسِهِ وَلَحِقَ بِالْهَيَاطَلَةِ وَهُمُ الصَّعْدَدُ مُسْتَجِيشَا هَمَّ وَمَرَّ فِي طَرِيقِهِ بِأَبُو شَهْرَوَانَ فَتَرَوَّجَ بَنْتُ مَلْكَهُ وَوَلَدَتْ لَهُ أَنُوشَرْوَانَ. ثُمَّ أَمْدَهُ مَلْكُ الْهَيَاطَلَةِ فَرَحَفَ إِلَى الْمَدَائِنِ لَسْتُ سَبْنَيْنِ مِنْ مَغْيَةٍ وَغَلَبَ أَخاهُ جَامِسَاتَ وَاسْتَولَ عَلَى الْمَلْكِ¹⁵.

هذا الاختلال الخطير في وضع الدولة الساسانية طيلة الفترة التي عقبت وفاة يزدجرد الثاني وخاصة أثناء حكم قواد سينجر عنه ما يشبه الفراغ في المناطق التي تشرف عليها اماراة الحيرة وليس من الصدفة أن اندلعت في هذه الفترة حرب البسوس الذي قيل أنها دامت أربعين سنة أي بالضبط من فترة الاضطراب الحاصل زمن قواد إلى فترة تولي كسرى أبو شروان الحكم وتمكنه من إعادة هيبة الدولة الساسانية سواء داخل الامبراطورية الساسانية أو في المناطق الخاضعة لامراء الحيرة:

واشتعلت نيران الحرب بين يكر وتغلب حوالي أواخر سنة 490 وذلك أن البسوس، وهي حالة جسام بن مرة الشيباني كان لها ناقة يقال لها سراب فرمها كلب وائل في حمام، وقد كسرت ي پض حمام كان قد اجاره فرمى ضرعها بهم، فوثب

ولذلك فإنّ غاية تطور هذا العالم تمثل في تحرير ذرات النور مما يغالطها من الظلمات¹².

فالمزدكية رغم الفروق البسيطة بينها وبين المانوية تناقض البرادشتية إذ تفترج على الانسان أن يتحرّر من الظلمات (الجسد، المال، الارض أي المال والبنون) بالأعراض عنها جميعاً وبما أن الملكية فقدت إلى هذا الحدّ شرعيتها (كظلمات ما لها المزدكية) فقد دعت المزدكية إلى الغائها. غير أن المزدكية وهي تدعى عامة الناس إلى شيوعية تنهي الصراع بينهم حول الارض والثروة والنساء ففرضت على المزدكين الخلاص أن يكونوا في منزلة خاصة يبلغها المرء عندما يعرض عن الزواج وأكل لحم الحيوان...

ان مثل هذه الدعوة لا يمكن أن لا تجذب إليها الفئات الضعيفة في المجتمع الساساني. وعلى العكس من هذه الفئات رأى فيها رجال الدين وقطع كبير من الطبقة الاقطاعية أعظم خطر يهدّد الدولة والدين السنّي. وقد ازداد احساسهم بالخطر عندما أسر البرابرة الهيطل فيروز أثير رجال الدين ولم يطلقوا سراحه الا مقابل فدية اضطر ل توفيرها الى تقديم ابنه قواد رهينة للهيطل مدة ستين وعندما عاد فيروز الى محاربتهم مني بهزيمة ثقيلة اذ انهزم الجيش الساساني (484) وقتل هرمز وسقطت ابنته أسميرة في أيدي الهيطل فضمها ملكهم الى حرميه واجتاز مقاطعات عديدة من ايران منها هراة وفرض على الايرانيين اتاوة سنوية ثقيلة ستنقل كاهم لهم عقوداً طويلة¹³.

لقد حاول رجال الدين والقطاع أن يضعوا حدّاً لافتت الدولة فاختاروا يلاوش (484 - 488) أحـا فيروز خليفة للشاه القتيل ولكن ذهب جهـلـهم عـبـثـاـ. وعـنـدـمـاـ خـلـفـهـ قـوـادـ أـبـوـ كـسـرـىـ أـبـوـ شـرـوـانـ (488 - 531) أـصـيـوـاـ بـفـزـعـ حـقـيـقـيـ اـذـ اـعـتـنـقـ الشـاهـ الجـدـيدـ نـفـسـهـ...ـ المـزـدـكـيـةـ¹⁴.

12- ص 336 Christensen. - L'Iran ...

13- المرجع السابق، ص 289.

14- يبدو أن هناك صلة بين معانٍ للفظ "قواد" في العربية ومزدكية "قواد".

15- ابن خلدون ... العبر، م 3، ص 356 - 357.

في الشمال وقبائل كندة الراحفة من الجنوب اذ قد حدث في هذه الفترة فراغ في عرش الحيرة لمدة قصيرة ملك بعدها المنذر الثالث (503 - 518) مرة أولى خاض فيها حربا دائمة ضد العرب الجنوبيين الذين تمكن ملوكهم الكندي الحارث سنة 518 من افتتاح عرش الحيرة (518-527) ثم ملك مرة ثانية الحارث سنة 518 بعد قتل الملك الكندي واستعادة عرشه الضائع: (528-554).

ان حالة الضعف التي الملت بالامبراطورية الايرانية عقب الاضطرابات الشيعية اذا كانت لم تخلل بين قواذد ومواصلة حربه ضد البيزنطيين قد سمحت للحارث بن عمرو من قبيلة كندة بطرد المنذر الثالث من عرش الحيرة والاستيلاء على السلطة الملكية¹⁷.

وقد عمد الحارث الكندي الذي سيحكم الحيرة حتى هزيمته سنة 528 على يدي خصميه الملك المخلوع المنذر الثالث الى توزيع الحكم في المنطقة الشاسعة التي أشرف عليها كندة على أبنائه الاربعة. فعيّن شرحبيل على ضبة والرياب وتميم وبكر وسلمة على تغلب والنمر وبهراء ومعد يكرب على قيس وكنانة وحجر والد الشاعر امريء القيس على بني أسد.

غير أن سرعة انتشار السيطرة الكندية لم تكن تعني قدرة الكنديين على المحافظة على هذا الملك الواسع فقد انقض أمير الحيرة القديم على الحارث مؤسس الامارة الكندية بجيش مكون من "تغلب وبهراء وایاد من سكان العراق وتمكن من قتله سنة 528 أو سنة 529 وبذلك عاد المنذر الى حكم الحيرة في الوقت الذي آل فيه أمر فارس الى كسرى أبو شروان خلفاً لوالده قباذ"¹⁸ ولن يكون مصير أبنائه بأفضل من مصيره "فاما شرحبيل وسلمة فقد ثارت الحرب بينهما ومع كل منهما أنصاره وانخلعت المعركة عن قتل شرحبيل قتله عصّم بن النعمان التغلبي وكان مع سلمة ثم عادت تغلب فأخرجت سلمة عنها فلجلأ إلى بكر محتمياً بها وأبْتَ بكر أن تُسلِّمه لاعدائه من تغلب أو المنذر أمير الحيرة"¹⁹

حساس على كليب فقتله، فهاجت حرب بكر وتغلب ابقي وائل بسببه أربعين سنة، حتى ضربت العرب بشتاً منها مثل"¹⁶.

هذه الحرب وما شابها وقعت في ظروف لا بد من تنزيتها فيها حتى تتضح أسبابها الحقيقة لا الأسباب القرية المباشرة وهذا الفهم العميق للحدث هو الحرفي وحده يترئّه العرب لذلك العهد من تهمة تهور تفسر عقليّة قضاها حرب دامت أربعين سنة بسبب كالذي سبق ذكره "أي ناقة كسرت يرض حمام".

ان فترة حكم قواذد تعتبر طويلة ولكن السنوات الأربعين التي قضتها في الحكم يكاد لا يخلو عقد منها من هزة اجتماعية او عقدية او عسكرية فكأن الدولة الساسانية أصبحت محكومة، رغم حكم أنوشروان الذي ستعيد فيه الدولة بعض حيويتها، ينطوي التفتت فالانهيار فقوادذ نفسه لم يستعد حكمه إلا بعون خارجي. وإذا كان الهيطل قد مكنوه من الحكم فهم قد ربطوه بهم سياسياً وقد تزوج من ابنة الخاقان التي انجبها من أسيرته الساسانية ابنة فيروز ولكن هذه المصاهرة لم تمنع من البقاء على الضربة الثقيلة التي فرضوها عليه فاتجه حفاظاً على الاتفاقية الهيطلية – الساسانية الى الدولة البيزنطية يطلب عنها المالي وقد قلت مداخليله نتيجة تخفيف الضرائب على رعاياه تطبيقاً للمزدكية ولكن الدولة البيزنطية لم يكن من صالحها أن تتوّق العلاقة بين الساسانيين والهيطل أكثر مما أصبحت عليه فرفض أنساز (491 - 518) مدة بقرض ينفع من عجزه المالي واندلعت الحرب بين الامبراطورتين بداية من سنة 502 بشكل متقطع لم يحرز فيه واحد من الطرفين نصراً حاسماً رغم أن الهيطل وجيشاً من اللخميين بقيادة النعمان بن الأسود (النعمان الثاني قتل 502) قد شاركوا في هذه المعارك انتصاراً للساسانيين. وقد اضطر قواذد حالماً أحرز بعض الانتصارات الى عقد هدنة مع البيزنطيين سنة 505 للحدّ من نزيف الخزينة.

كان هذا هو وضع قواذد عندما اضطر الى الضغط البيزنطي في الغرب والهيطل (الانصار الاعداء) في الشرق خطوان حديثان : قبائل الهيطل البيض

16- كحالة (عمر رضا)... معجم قبائل العرب القديمة والمحدثة، بيروت، ج 1، 1968 - ص.95

Chistensin. - L'Iran... - 354

17- النجار ... علاقة... - ص.38

18- المرجع السابق، ص.39

الفصل السادس

عصر جوستينيان وكسري أنو شروان وعبد المطلب بن هاشم

يعيل المؤرخين إلى نسبة القرن السادس إلى جوستينيان الذي كان منذ 518 يشارك جوستين (518-527) فعلياً في الحكم قبل أن يخلفه سنة 527 فيما حكمه إلى سنة 565. ويمكن أن نعمم هذه النسبة فتشمل شاه الساسانيين كسرى أنو شروان (أي الروح الخالدة) إذ امتد حكمه طيلة نصف قرن (531-579).

في هذه الفترة ظهر أشهر أمراء العرب الموالين للقوطين العظميين: المنذر (503-518) ثم (518-554) وابنه عمرو بن هند (554-569) في الحيرة والحارث بن جبلا (527-569) في بصرى. أما في مكة فيعتبر عبد المطلب (ت 579) معاصرًا لمن ذكرنا من الملوك والأمراء.

تبعد شخصية جوستينيان ونظرته السياسية محل خلاف عند المؤرخين إذ فيهم من يعتقد احتفاظ الامبراطور في استعادة ما ضاع من الامبراطورية في الغرب والشمال الأفريقي وفيهم من يرى أن هذا الجهد ذاته لا يعود أن يكون تعبيراً عن روح ماضوية زادت من ضعف الجزء الشرقي من الامبراطورية من دون أن تتحقق نتيجة باقية في جزئها الغربي.

وفعلاً فقد تعددت على عهده الحملات ضد المغاربة من الاستروغوط في إيطاليا والوندال في إفريقيا الشمالية وقد يكون من أسباب تشجيع جوستينيان على مشروعه هذا ما شهدته من ضعف ونديالي مكّن القبائل البربرية من الانتصار على هيلديريك (523-530) وأحدث نزاعاً داخل الحكم الوندالي انتهى بافتتاح جيلمير الحكم (530-533) وكذلك ما شهدته من هذا التاجر البربري-البربري الشبيه إلى حد كبير بالتناحر العربي في الشرق الأدنى.

و"أما حجر بن الحارث (أبو امرئ القيس الشاعر) فلم يزل أميراً على بنى أسد إلى أن بعث رسله في بعض الأيام لطلب الاتساعة من بنى أسد فمنعوها وضرروا الرسل. وكان حجر بتهامة فبلغ الخبر فسار إليهم في ربيعة وقيس وكتانة فاستباحهم وقتل أشرافهم وسرواطهم، وحبس عبيد بن الإبرص في جمع منهم، فاستعطفه بشعر بعث به إليه فسرّحه وأصحابه وأوفدتهم فلما بلغوا إليه هجموا عليه فقتلوه وتولى قتله علباء بن الحارث الكاهلي، كان حجر قتل أباه. وبلغ الخبر امرئ القيس فحلف أن لا يقرب لذة حتى يدرك بثاره من بنى أسد"²⁰. وعثنا حاول هذا الامير الكندي الاستنجاد بجوستينيان لاستعادة ملك أبيه فاضطر إلى الانتقال من مكان إلى مكان هرباً خاصة من مطاردة أمير الحيرة. وقد عبر عن وضعه ذلك قائلاً:

بكى صاحبي لما رأى الدرب دونه
وأيقن أنا لاحسان بقيصرنا
فقلت له: لا تبك عينك إنما
نحاول ملكاً أو غوت فنعتذرها

وقد نصيف استطراداً أن بعض من ذكرنا من الشعراء سيتخذون قدوة في الشعر ومثلاً أعلى سعي النقاد المحافظون إلى الاقناع بضرورة الحذر حذوه والحال أن القوم لا يمثلون على مستوى القيم أو اللغة إلا ما يمكن أن تمثله فترة كالية وصفنا بكل ما تعنيه من نسبة يفرضها كل قراءة تاريخية لحياة الأمم. فمن الواضح اذن أن الانكسار الساساني (استيلاء الانجليز على اليمن سنة 525، الحرب الساسانية البيزنطية 527، التمرد المزدكي 528...) كان قد بلغ في الثلث الأول من القرن السادس حد الخطير واستقلب ولاية كسرى أنو شروان وعودة المنذر إلى امرة الحيرة الموازيين بين الدولتين العظميين الإيرانية والبيزنطية رغم أن هؤلاء قد ظفروا بدورهم بأمير غسانى تابع من الطراز الأول هو الحارث بن جبلا (529-569) وبظفورهم هذا سوف يصل الصراع العربي - العربي بين الحميتين أقصى ما وصله من قبل حكمهما ومن بعد.

20- ابن خلدون ... العبر، م 3، ص 573.

الشمال الأفريقي (533) هو الذي دعا بعض المؤرخين إلى أن يروا في سياسة جوستينيان ما يشبه سياسة تحويل الأنظار عن الأزمات الداخلية بتجويفها نحو هدف خارجي. وإن فكل هذه الأحداث هي التي تفسّر كما قلنا اختلاف المؤرخين في تقدير عهد هذا الامبراطور.

إن ملكاً ككسرى أتو شروان لا يمكن إلا أن يفكّر في استغلال انشغال الامبراطور البيزنطي بالحرب في الغرب وبالصعوبات الاجتماعية الداخلية. إذ ليس من باب التهور والسياسة غير المخططة أن أعلن الشاه الحرب على البيزنطيين رغم صلح سنة 532 والحق بهم هزائم فادحة. فقد اجتاز سوريا سنة 540 وفرض أتاوة على جوستينيان ولكن هذه الحرب والحروب اللاحقة لن تكون حاسمة إذ كانت الدولتان وهما تحاريان تتعرضان إلى ضغط عسكري كان يهددهما معاً.

فكسرى نفسه كان مضطراً إلى حلّ قضاياً ثلاث ورثها عن أبيه. كان عليه أن يتخلص من خطر الهيطل في الشرق الذين كانوا ما زالوا يخضعون للساسانيين لشروط الاتفاقية التي قيدوا بها قواً وذُمتها ضرورة دفع أتاوة ثقيلة. وكان عليه أن يحل قضية الهون في الشمال وكان عليه أن يجدد صيغ التعامل مع الإمارة العربية في الحيرة. ولا يمكن إيجاد حلول مثل هذه القضايا الخارجية إلا بتجدد قوّة الدولة وإعادة الوحدة الوطنية التي تفتت أثناء الحركة المزدكية واستيلاء الضعفاء على أملاك النساء وعلى النساء واحتلال الصراعات الدينية في المملكة. وفعلاً فقد فقد بدأ كسرى أتو شروان باصلاحات داخلية أجمل المؤرخون العرب القول فيها فأطلقوا عليها عبارة "عدل كسرى" وهي تمثل في إعادة الممتلكات إلى أصحابها القدماء وفي صياغة حلول لقضايا النساء المختطفات والسعى إلى فرض نظام جبائي يراعي حجم الملكية ويعمم الضريبة الشخصية على كل الإيرانيين ما بين 20 و 50 سنة باستثناء "البلاد والأعيان والجنود ورجال الدين والكتبة ومن هم في خدمة الملك".⁴ وراعى في هذه

كتب عبد الله العروي متتحدثاً عن مملكتي يدادس Yabdes في الأوراس وأنطالاس Antalas في الوسط والشمال الغربي التونسيين:

كذلك الوندال وكانت الفرقة التي الحقّتها بهم سنة 530 مثابة الإعلان عن نهاية حكمهم في الشمال الأفريقي ذلك أن هذه الفرقة هي التي استثارت شجاعة الكاثوليك وأمبراطور بيزنطة. إن أنطالاس سيعين البيزنطيين وقد اعترفوا بصفته الملكية في حربهم ضد يدادس ولكنه سيثور عليهم هو بدوره عندما سيعاملونه بفظاظة بعد أن أحسوا بامكانية الاستغناء عنه فيلحق بهم هزيمة سنة 545 ليهزمه في السنة التي تلتها القائد البيزنطي تروغليطا¹

لقد استغلّ جوستينيان وضع الوندال والبربر فبعث بقائده الشهير بليساروس Belisaire (ت 565) إلى قطاح بيزيل دولة الوندال (533) أولاً وعهدَ لمن خلفوه من القادة الطريق لکبح النزاعات الاستقلالية البربرية.

ولكن هذا الانتصار البيزنطي في منطقة بعيدة كالشمال الأفريقي عن بيزنطة ثم في إيطاليا ليس في نهاية الأمر انتصاراً حقيقياً ودائماً إذا استحضرنا ما كانت تشهده بلاد البلقان ذاتها من زحف المسلمين من بلغار وسرب وكروات وسلوفينيين وبستينيين على كامل المنطقة بل تهددهم بيزنطة مركز الامبراطورية فقد

احتاز المسلمون على عهدي جوستين الأول وجوستيني الدانوب في غزوات مدمرة بلغت البحر الأدربياني و الخليج كورشة وساحل بحر إيجة وكانوا يهاجمون المدن ثم ينسحبون شمال النهر²

بل أن بيزنطة ذاتها تعرضت لصعوبات اجتماعية داخلية أسفرت عن اتفاضاً دموية سنة 532 سيطر فيها المتمردون على العاصمة طيلة ثلاثة أيام وأسلموها للحرق والنهب فلم تسلم حتى أيا صوفيا من النهب ولم يتمكن القائد بلساريوس من إخمادها إلا بعد سقوط ما لا يقلّ عن ثلاثين ألف قتيل.³ وتقارب تاريخيّ الأزمة البيزنطية الداخلية (532) واستعادة بيزنطة هي منها على

Abdellah Laroui: L'Histoire du Maghreb, tome 1, 1976, p. 69. –1

Georges Castellan: Histoire de Balkans, 1992, p. 35. –2

P. Lemerle: Histoire de Byzance, p.55 –3

الضريبية كما راعى في الضريبة العقارية حالة دافعي الضريبة المالية وسهر على أن تطبق تعليماته بشكل صارم يمنع تجاوزات القائمين على تطبيق القانون.

لقد حازت هذه الاجراءات على رضا الناس عموماً ووفرت للخزينة مداخيل أكبر وعززت منزلة الدولة. وإن فهـي لم تكن كما صورها بعض المؤرخـين تأثـراً منـهمـ بما رـسـخـ منهاـ فيـ أـذـهـانـ مـعاـصـرـهـ منـ العـرـبـ الذينـ كـانـواـ يـعـيـشـونـ خـارـجـ نـاطـقـ الدـوـلـةـ المـنـظـمـةـ الـعـرـيقـةـ فـيـ الـعـمـلـ بـالـدـسـاتـيرـ نـابـعـةـ مـنـ نـوـعـ مـنـ "ـالـحـكـمـ الـفـطـرـيـةـ"ـ بـقـدـرـ ماـ كـانـتـ صـادـرـةـ عـنـ عـقـلـ سـيـاسـيـ فـهـمـ أـنـ الشـيـوـعـيـةـ الـمـزـدـكـيـةـ إـنـماـ نـتـجـتـ عـنـ اـخـتـنـاقـ اـجـتمـاعـيـ حـقـيـقيـ فـعـلـ كـسـرـىـ لـأـعـلـىـ اـنـتـهـاـجـ الـنـهـجـ السـيـاسـيـ الـقـدـيمـ وـلـأـعـلـىـ قـلـبـ الـأـوـضـاعـ وـإـنـماـ عـلـىـ قـلـبـ الـأـوـضـاعـ وـإـنـماـ عـلـىـ اـقـرـارـ نـوـعـ مـنـ الـاصـلاحـ يـعـزـزـ الـدـوـلـةـ وـيـوـحـدـ النـسـيجـ الـاجـتمـاعـيـ يـيـدـرـ هـذـاـ النـفـاذـ السـيـاسـيـ وـاـضـحـاـ حـتـىـ فـيـ الـاـجـرـاءـاتـ الـقـانـوـنـيـةـ الـتـيـ أـصـبـحـتـ تـعـتمـدـ التـدـرـجـ فـيـ الـعـقـابـ حـفـاظـاـ عـلـىـ قـوـةـ عـلـىـ الـجـرـمـينـ:

فـحـلـافـاـ لـمـ سـادـ فـيـ الـاـزـمـنـةـ السـابـقـةـ أـصـبـحـ تـنـفـيدـ الـاـحـکـامـ الـقـاضـيـةـ بـبـيـتـ الـأـعـضـاءـ يـرـاعـيـ ضـرـورةـ الـحـفـاظـ عـلـىـ قـوـةـ عـلـىـ الـجـرـمـينـ،ـ فـيـ حـالـةـ الرـبـنـاـ مـشـلـاـ يـقـعـ الـاـكـفـاءـ بـقـطـعـ الـأـنـفـ.ـ إـنـاـ عـادـ الـجـرـمـوـنـ الـحـكـمـ عـلـيـهـمـ بـتـعـوـيـصـ مـالـيـ وـفـوـ بـادـاـهـ إـلـىـ اـرـتـكـابـ عـملـ خـالـفـ يـقـعـ قـطـعـ آـذـانـهـ وـآـنـفـهـ وـمـخـرـمـونـ مـنـ كـلـ عـفـوـ جـدـيدـ.⁵

ولـعـلـ أـفـضـلـ مـاـ يـدـلـ عـلـىـ تـهـافتـ صـورـ كـسـرـىـ التـقـليـدـيـةـ "ـالـاـجـرـاءـاتـ الـأـمـنـيـةـ الـخـاصـةـ الـتـيـ كـانـتـ تـتـحـذـ حـمـاـيـةـ لـلـمـلـكـ مـنـ مـحاـوـلـاتـ الـاغـتـيـالـ.ـ فـلـأـحـدـ يـعـرـفـ الـمـكـانـ الـذـيـ يـنـامـ فـيـ الـمـلـكـ كـلـ لـيـلـةـ.ـ وـيـحـكـيـ أـنـ اـرـبـعـينـ سـرـيراـ كـانـ يـقـعـ تـهـيـئـتـهـاـ فـيـ أـمـاـكـنـ مـخـلـفـةـ لـأـرـدـشـيـرـ الـأـوـلـ وـكـسـرـىـ الـأـوـلـ (ـأـنـوـ شـرـوانـ)ـ وـكـسـرـىـ الـثـانـيـ (ـأـبـروـيـنـ)ـ وـفـيـ بـعـضـ الـأـحـيـانـ لـأـنـامـ الـمـلـكـ فـيـ أـيـ وـاحـدـ مـنـهـاـ وـإـنـماـ فـيـ غـرـفـ الـبـسيـطـةـ وـهـوـ يـتوـسـدـ ذـرـاعـهـ.⁶

إن أهم الأسباب التي دفعت بالمؤرخين القدامي إلى رسم صورة مشرقة لكسرى أنو شروان هو تنزل فترة حكمه بين فترة الفوضى المزدكية وفترة خلافة أعقابه المضطربة التي انتهت بذهاب الدولة الساسانية.

وحتى ما ينسب إلى عصره من ازدهار أدبي أو فلسفـي يـعـتـبرـ الطـبـيبـ بـرـزوـيـهـ الشـهـيرـ فـيـ التـالـيـفـ الـعـرـبـيـ الـقـديـمـ أـفـضـلـ تـعـبـرـ عنـهـ،ـ لـيـسـ فـيـ نـهـاـيـةـ الـأـمـرـ غـيرـ نـتـاجـ لـاـنـتـشـارـ الـخـضـارـةـ الـأـغـرـيـقـيـةـ الـرـوـمـانـيـةـ مـنـ نـاحـيـةـ الـاهـنـدـيـةـ مـنـ نـاحـيـةـ الـأـخـرـىـ فـيـ الـبـلـادـ الـأـيـرـانـيـةـ الـتـيـ كـانـتـ قـبـلـ الـمـعـارـضـيـنـ الـدـيـنـيـيـنـ وـالـسـيـاسـيـيـنـ لـلـدـوـلـةـ الـبـيـزـنـطـيـةـ فـاعـتـبـرـ عـلـامـةـ تـسـامـحـ فـكـرـيـ أـضـافـ إـلـىـ صـورـةـ كـسـرـىـ مـزـيدـاـ مـنـ الـأـشـرـاقـ.ـ وـمـنـ الـأـمـمـةـ عـلـىـ مـاـ يـبـدوـ تـسـامـحـاـ فـكـرـيـاـ أـنـ عـقـبـ إـغـلـاقـ مـدـرـسـةـ أـثـيـنـاـ الـفـلـسـفـيـةـ سـنـةـ 529ـ وـاضـطـهـادـ فـلـاسـفـتـهاـ جـلـ سـبـعـةـ مـنـ هـوـلـاءـ هـمـ دـامـاسـيـوسـ السـوـرـيـ

وسـيـمـبـلـيـسـيـوـسـ وـلـيـدـ قـيلـيقـيـةـ Simplicius وأـلـامـيـوـسـ الـفـرـيـجـيـ Eulamios وـبـرـيـسـيـانـوـسـ الـلـيـدـيـ Priscianos وـالـقـيـنـيـقـيـانـ هـيـرـمـيـاـسـ وـدـيـوـجـيـنـيـوـسـ Hermias et Diogène واـيـزـيـدـوـرـوـسـ غـرـةـ Isodore فـقـابـلـهـمـ كـسـرـىـ أـنـوـ شـرـوانـ بـكـلـ تـرـحـابـ.ـ وـفـيـ الـحـقـيـقـةـ فـإـنـ ظـنـ هـوـلـاءـ الـعـلـمـاءـ الـبـيـزـنـطـيـنـ قدـ خـابـ إـذـ رـأـواـ مـاـ تـسـمـ بـهـ عـادـاتـ الـأـيـرـانـيـنـ مـنـ بـرـبـرـيـةـ وـشـاهـدـواـ فـظـاعـةـ الـاضـطـهـادـ الـتـيـ تـتـصـفـ بـهـ مـعـاملـةـ الـطـبـقـةـ السـائـدـةـ عـامـةـ الـأـيـرـانـيـنـ فـغـادـرـواـ الـبـلـادـ سـاخـطـينـ.ـ وـمـعـ ذـلـكـ فـقـدـ تـبـيـنـ كـسـرـةـ مـطـالـبـهـمـ وـتـمـكـنـ عـنـدـ عـقـدـ مـعـاهـدـةـ السـلـمـ السـاسـانـيـةـ الـبـيـزـنـطـيـةـ مـنـ الـحـصـولـ عـلـىـ حـقـّـهـمـ فـيـ حـرـيـةـ الـعـودـةـ إـلـىـ وـطـنـهـ.⁷

إن ما يدخله كريستنسن ضمن روح تسامح كسرى لا يعني في الحقيقة غير دهاء سياسي. والواقع الحالي في القرن العشرين يثبت أن قوة عظمى قد تدافع عن حريات مواطني خصمها السياسي من دون أن يكون ذلك اعتنقاً منها لطريقة تفكيرهم أو تعبيراً عن روح التسامح التي لا يمكن بأية حال من الأحوال أن تقاس إلا على أساس مدى ما يتمتع به مواطنوها هي من حريات. ومع ذلك فالذى لا جدال فيه هو بعد نظر كسرى أنو شروان السياسي. لقد كان عليه أن يقاوم الهيطل في الشرق و الهيطل البيض في الشمال

5- المرجع السابق، ص 373.

6- م.س. ص.374.

وانصر على آل الصليب وعابديه اليوم آلك

ثم أرسل الله عليهم الطير الأبابيل من البحر (يقصد البحر الأحمر) ترميمهم بالحجارة فلا تصيب أحد منهم إلا هلك مكانه واصابه موضع الحجر من جسده كالجلدري والخصبة فهلك وأصيب أبرهة في جسده. هلك ذلك، وسقطت أعضاؤه عصوا عصوا ويعتوا بالفيل ليقدم على مكة فربض ولم يتحرك فتحنا، وآقدم في آخر فحصصه رب الله سيرا مجحفا ذهب بهم وألقاهم في البحر ورجع أبرهة إلى صنعاء وهو مثل فرع الطائر فانتصر صدره على قلبه ومات.⁹

إن ما تجدر الإشارة إليه أن حكم المنذر إن بدا في بلاد معدّ بالضعف الذي رأينا معه إبنه الوالي عمرو بن هند يلتجيء إلى ما يشبه دفع الآتارة حتى يقبل أبرهة بالتراجع عن التقدّم نحو الشمال فمرد ذلك إلى بعد الحجاز عن مركز الإمارة في الحيرة ووقوع عمرو بن هند بين ضغط الفساسنة وضغط الأحباش. أما في غير هذه المنطقة فستترزق قوة اللخميين بشكل واضح حتى أن المنذر تمكّن من أسر ولد للحارث بن جبلا قدمه قربانا إلى العزيّ سنة 544 ففتح للثأر القبلي باباً جديداً لم تخمد له الدّة الساسانية البيزنطية سنة 522 إذ قتل الحارث بن جبلا الغساني في يوم حليمة سنة 554 خصمه المنذر بن النعمان اللخمي وأسر أمير القيس بن المنذر فأثار بذلك حمية أمير الحيرة الجديد عمرو بن هند (554-569) وروح التشفي عند الغسانيين فنظم شعراؤهم في ذلك القصائد ومنهم عديّ بن رعلاء الغساني:

ربما ضربة بسيف صقيل
دون بصرى، قطعنة نجلاء
وغموس تضل فيها يد الآ
سي ويعيا طببها بالدواء
لبيدون سامر الملحاء
رفعوا راية الضراب والآوا
فصبرن النفوس للطعن
حرت الخيال بيننا بالدماء

كان الغسانيون يكون واحداً منهم قدمه أمير الحيرة قرباناً لصنمه وهذا أن الحيرة تصاب في أمرها القتيل وابنه الأسير. فـأي واجب على الأمير الجديد ابن المنذر اللخمي وهند بنت الحارث الكندية الملقب بعمرو بن هند يمكن أن

⁹- ابن خلدون، العبر، ج3، ص 119.

والبيزنطيين في الغرب وفي اليمن والعرب البدو على حدوده الجنوبيّة. واعلان الحرب في كل هذه الجبهات أمر لا يدل على بعد نظر سياسي لذلك رأى أن يواصل دفع آتارة للهيطل وإن يفرغ لحرب الروم حتى تناح الفرصة لضرب الهيطل. ومحاربة الروم تعني محاربة أتباعهم من غساسنة سوريا ومن أحباش اليمن. من هنا كانت سياسة المتمثلة في إعادة توثيق صلاته بالمنذر بن النعمان (مونذر بر نعمن ملك العرب). وعندما اندلعت الحرب من جديد بين الامبراطوريتين واحتاج سوريا وخرب انطاكية سنة 540 كان ملك الحيرة عضده في هذه الحرب كما كان الحارث بن جبلا الغساني (529-569) عضد جوستيان. وهكذا اضطر البيزنطيون إلى دفع آتارة ثقيلة واشتدت العداوة بين الخصمين العربين التابعين المنذر بن النعمان والحارث بن جبلا واتسع نطاق صراعهما فيما بين اللخميين وكأنهما في وضع الفريسة الواقعة بين الفك الغساني في الشمال والفك الحشبي في الجنوب من دون أن ينحووا في كسب مضري قريش الذين اختاروا الحياد إلى صفهم:

كان أبرهه قد آمن في بلاد معدّ غزوا وتحدى أحد النقوش عن تسلطه على بعض قبائل بني عامر في ديارهم مما يلي اليمن وكانت تمتد حتى تصل إلى بلاد الحارث بن كعب بنحران من جهة الشرق وأن أبرهه قد قام بغزوها في الربع من شهر ذي ثبات، إلا أن عمرو بن هند أعطى ورهن من أحلهن الرهن وأبعد خطره عن تلك الناطق التي آل أمرها إلى المنذر الثالث، وتاريخ هذا النتش يوافق 544⁸

كتب ابن خلدون عن غزو معدّ وعن أسباب تراجع الأحباش نقالاً عن الطيري:
وكان فيما زعموا قد ذهب مع عبد المطلب عمرو بن لعابة بن عديّ بن الرمل سيد كلاته وخويلد بن وائلة سيد هذيل وعرضوا على أبرهه ثلث أموال تهامة ويرجع عن هدم البيت فأئى عليهم فانصرفوا. وجاء عبد المطلب وأمر قريشاً بالخروج من مكة إلى الجبال والشعاب للتحرز فيها ثم قام عند الكعبة ممسكاً بحلقة الياب ومعه نفر من قريش يدعون الله ويستنصرونه وعبد المطلب ينشد ويقول في أبيات معروفة:

لا هم أن العبد يمنع
رحلة فامنع رحالك
لا يغلبن صليبيوه
ومحالهم أبداً محالك

يحظى بالأولوية أكثر من واجب القاتل للأب القتيل والأخ الأسير؟ إن المعاهدة التي ستنعقد بين كسرى أنس شروان وجستنيان سنة 561 ستتضمن شروطاً قاسية فرضها السياسيون على البيزنطيين منها ضرورة مواصلة دفع أتاوة إلى كسرى والإحجام عن تشجيع نشر المسيحية في البلاد الإيرانية كما تتضمن فيما يتعلق بالغسانيين واللخميين حظراً صريحاً للغزو بين الامارتين قد يتسبب في نقض الصلح بين الدولتين العظميين مما يشي منذ هذه الفترة المبكرة بتقلص دور الامارتين في اللعبة السياسية العالمية ولكن هذا الصلح لن تكون لها تأثير في منزلة الأولوية في سياسة الامارتين الجنوبي الأصل.

وفي حين وجه كسرى جهوده كلها إلى مقاومة الهيطل (الخزر) حتى تمكن من القضاء عليهم بين 563 و 567 وألى القضية اليمنية فبعث بوهرز أحد قواه في جيش من الدليل لاعنة سيف بن ذي يزن على طرد الأحباش¹⁰، كان عمرو بن هند منشغلًا بتجمّع القبائل استعداداً للثأر من الغساسنة. وقد انحازت له بعض القبائل الواقع تحت سلطانه "مثل بكر وبعض ثيم والقبائل المتحالفه معه ولكنها لا تدين له مثل بني أسد وطيء وغطفان"¹¹. وتجاهلت دعوته قبائل أخرى كتغلب التي تمنعها عداوتها لبكر من مناصرة أمير تناصره شقيقها العدنانية. وبهذا اضطر إلى الصراع القحطاني القحطاني مثلاً في تنويحي الحيرة وغسانى بصرى صراع عدناني عدناني مثل في الصراع التغلبى البكري واضطربت تغلب تبعاً لذلك إلى الإيغال في الشمال الدجلي - الفراتي يلاحقها غضب عمرو بن هند فترد عليه بروح ثمرد غير عنها شاعرها عمرو بن كلثوم:

10- من المدحيات التي قيلت في كسرى أنس شروان في هذه المناسبة، لامية ابن أبي الصيل وقد جاء فيها:

لله درهم من عصبة خربوا
يسدا تربب في الغضات أشبالا
برخر يجعل المرمي اعجالا
أرسلت أسدًا على سود الكلاب فقد
فأشرب هنبا عليك التاج مرتقا

11- النجار، المرجع السابق ص ...

أبا هند فلا تعجل علينا
بأنـا نورد الـرأـيـات بيـضا
وـايـام لـنـاغـرـ طـوال
متـى نـقـلـ إـلـى قـومـ رـحانـا
يـكـونـ ثـفـاحـاـ شـرقـيـ بـحـدـ
نـزـلـكـمـ مـنـزلـ الـاضـيـافـ مـنـا
قـرـيـاـكـمـ فـعـلـجـنـاـ قـرـاـكـمـ
ورـثـناـ الجـدـ قدـ عـلـمـتـ مـعـدـ
أـلـاـ يـجـهـلـنـ أـحـدـ عـلـيـنـا
بـأـيـ مـشـيـةـ عـمـرـوـ بـنـ هـنـدـ
تـهـدـدـنـاـ وـتـوـعـدـنـاـ رـوـيـداـ
فـأـنـ قـنـاتـنـاـ يـاـ عـمـرـوـ أـعـيـتـ
فـهـلـ حـدـثـتـ فـيـ حـشـمـ بـنـ بـكـرـ
وـرـثـناـ بـجـدـ عـلـقـمـةـ بـنـ سـيفـ
وـرـثـتـ مـهـلـهـلـاـ وـالـخـيـرـ مـنـهـ
وـعـتـابـاـ وـكـلـثـومـاـ جـمـيعـاـ
وـذـاـ بـرـةـ الـذـيـ حـدـثـتـ عـنـهـ
وـمـنـاـ قـبـلـهـ السـاعـيـ كـلـيـبـ

وقد عمد عمرو بن هند إلى إزالة العقاب بتغلب قبل أن يفرغ إلى محاربة الغساسنة فدفع قانون الثأر التغالبة إلى قتله (569) قتلة صاغها الرواة القدامي في شكل قصصي هو أقرب إلى الاستطورة منه إلى التاريخ. وقد عبر الشاعر الحارث بن حلزة عن شدة امتحان عمرو بن هند التغالبة:

ثم خيل من بعد ذاك مع الغ للاق لا رأفة ولا ابقاء.

فكيف يمكن من بعد ما سلط عمرو بن هند على تغلب من عقاب "لا رأفة ولا ابقاء" فيه القبول باسطورة المأدبة التي انتهت بقتل عمرو بن هند؟

على أن ما يجب أن نوكل عليه هو أن السياسة السياسية وكذلك البيزنطية قد اتجهتا منذ معاهدة 561 إلى تهميش دوري لحلفائهما من اللخميين والغسانيين وستكون السنوات العشرون المتبقية من القرن السادس سنوات ضعف هذين الامارتين فينحصر عن وقائهما الجانب السياسي العالمي لتحقير في صراع قبلي بحث هيأ الطريق لظهور القوة العدنانية القحطانية المشتركة ممثلة في الدولة العربية الإسلامية.

إن سبعينيات القرن السادس تبدو إذن حاشدة بالأحداث فقد قتل الحارث بن جبلة سنة 569 بعد حكم دام 40 سنة كما قتل في هذه السنة نفسها عمرو بن هند. واستولى كسرى على اليمن سنة 570 كما ولد محمد بن عبد الله في هذه السنة. فهذه العشرية هي عشرية التوسيع الساساني على حساب بيزنطة وهي عشرية إحساس البيزنطيين بخطل سياسة جوستينيان الذي وجه نظره إلى الغرب وشمال إفريقيا فتضاعفت المحاطر المحدقة ببيزنطة في عقر دارها. ومع ذلك فإذا كان الصراع الساساني البيزنطي سيتواصل فإن الدولتين العظميين أصبحتا تحسان أن صراعهما لا يعد شيئاً إذا ما قورن بالخطر التركي على إيران في الشرق والخطر السلافي على بيزنطة في البلقان.

هذا هو في نظرنا سبب تقلص دور الامارتين العربيتين في الحيرة وبصرى ثم تلاشي هذا الدور بداية القرن السابع. وفعلاً فإن البيزنطيين كانوا منذ عهد جستينيان ساخطين على سياسته الغربية فعملوا منذ وفاته (565) على إعادة النظر في هذه السياسة واجتهدوا في تخفيف الضغط الساساني عليهم في المشرق ودفع خطر السلافيين جنوب الدانوب وكان هؤلاء يزحفون نحو البلقان مدفوعين بما يشبه الحاجة الحيوية إلى "الوصول إلى منفذ على البحر الأبيض المتوسط (...)" إن عصر جوستينيان قد طرح أسس القضية السلافية في البلقان¹³.

يدو حكم جوستينيان في تاريخ بيزنطة بمثابة خططاً كان له أبعاد وخيمة إذ عطل تطويراً عادياً وضرورياً. ففي حين أصبحت الإمبراطورية عملياً إمبراطورية شرقية

لقد تمكّن عمرو بن هند بعد فراغه من أمر تغلب من الحق المزمعة بالغسانيين من خم وجدام وعامة وغانسان بل قتل الحارث بن جبلة نفسه (569) وأسر ابنه وأطلق سراح أخيه. قال الشاعر الحارث بن حلزة مفاحراً بالحدث:

إذ أحلَّ الغلاة قبة ميسو
بعد ما طال حبسه والعنة
ذر كرها إذ لا تكال الدماء
وأندناه رب غسان بالمن...

ولكن هذا الانتصار اللخمي سيدفع الغسانيين بعد عام إلى الانتقام في عين أبيغ (570) من اللخميين إذ ألحق المنذر بن الحارث بن جبلة أمير الغساسنة الجديد (569-582) بجيشه قابوس (573-574) أخي عمرو بن هند وأمير الحيرة الجديدة هزيمة نكراء. ويبدو أن هزيمة قابوس تعود في جانب كبير منها إلى شخصية هذا الأمير الذي لم يكن يتصرف ببعض ما كان يتصرف به أخوه من صفات سياسية إذ لم يحظ في نظر من عرفه من العرب الموالين للخميين بتقدير كاف. فهذا طرفة بن العبد يقول فيه:

لعمرك أن قابوس بن هند ليخلط ملكه نوك كثير

قال فيه ذلك بعد أن عاشره مدة نزولاً عند رغبة أخيه عمرو بن هند الذي طلب منه ومن الشاعر المتنفس أن يلزم أخيه (قابوس) وكان فتيًّا هو وشراح وصيده¹². لذلك سيلجأ كسرى أنسٌ شروان مباشرةً إثر موت قابوس إلى تعين حاكم ساساني (السهرب) على الحيرة (574-573) بدل اللخميين وإن كان سيعدل بعد ذلك عن قراره فيعيد الحكم إليهم ويعين المنذر بن المنذر (574-

(578) أخا عمرو بن هند وقابوس على هذه الإمارة.

وفي حين خلّيَ أيادِيُّهُمُ الْخَامِسُ فَعَلِيَا عَنِ الْغَرْبِ رَغْمَ ابْقَائِهِمُ عَلَى حُقُوقِهِم
النَّظَرِيَّةِ عَلَيْهِ وَضَحَّوْا بِهِ فِي سَيِّلِ خَلاصِ الشَّرْقِ، وَلِيَ جُوْسْتِيَانَ وَجْهَهُ مِنْذِ بَدْيَةِ
حُكْمِهِ نَحْوَ الْغَرْبِ وَوَجْهَ طَكْرُوحَهُ نَحْوَ أَيِّ نَحْوِ الْمَاضِيِّ وَبَذَلَ مِنْ أَجْلِ بَعْثَ هَذَا
الْجَزْءِ الْمَيِّتِ مِنِ الْإِمْپَاطُورِيَّةِ جَهْدًا بِالْغَالِبِ الْجَزْءِ الْحَيِّ مِنْهَا.¹⁴

إن ما ورثه جوستين الثاني (565-578) عن سلفه يعتبر بحق كارثة: هدنة ساسانية بيزنطية مشروطة بأسباب تدفعها بيزنطية لايران وسياسة ايرانية انتهت بوقوع اليمن طريق الهند والصين مصدرى استيراد القطن خاصة في الأيدي الإيرانية وحدود شمالية يهددها السلافيون وأزمة اقتصادية داخلية تهدّد النظام القائم وخصوصة دينية حادة بين الإرثوذوكسية دين الدولة والمونوفيزية دين بعض مقاطعات الدولة، إضافة إلى النسطورية وكذلك بين كبير أساقفة روما وبطريرك القدسية. لذلك لم يكن بإمكان جوستين الثاني وهو يتسلّم الحكم غير وسيلة واحدة لتطويق الوضع: تعزيز دفاع بيزنطية جنوب الدانوب ومقاومة الممينة الساسانية فاحتهد في إثارة القلاقل على حدود كسرى أنو شروان الشمالية بتشجيع القبائل التركية على الإغارة على الامبراطورية الساسانية وفي إثارة القلاقل في أرمينيا النصرانية فاندلعت الحرب من جديد بين الامبراطوريتين سنة 572. وقد تكون البيزنطيون في بداية الحرب من احتياج ما بين النهرين ولكنهم هزموا آخر الأمر واضطروا إلى إحداث تغييرات كبيرة في قيادة جيشهم مكتنهم بقيادة موريس الذي سيتولى فيما بعد حكم الامبراطورية من إحراز نصر في بعض الواقع أحير كسرى أنو شروان على الشروع في مفاوضات سلام وقد مات سنة 579 قبل أن تفضي إلى اتفاق نهائي.

المصادر والمراجع

بالعربية.

- ابن خلدون (عبد الرحمن)، كتاب العبر، م 3، بيروت، دار الكتاب اللبناني، 1977.
- ابن هشام، السيرة النبوية، ج 2، القاهرة، مطبعة الحلبي وشرکاه، 1936.
- حتي (فليب)، خمسة آلاف سنة من تاريخ الشرق الأدنى، بيروت، الدار المتحدة للنشر، ج 1، 1975.
- الشرفي (عبد الحميد)، الفكر الإسلامي في الرد على النصارى إلى نهاية القرن الرابع (الباب الأول)، تونس، الدار التونسية للنشر، 1986.
- الشنقيطي (أحمد بن الأمين)، شرح المعلقات العشر وأخبار شعرائها، بيروت، دار الكتاب العربي، 1992.
- كحالة (عمر رضا)، معجم قبائل العرب القديمة والحديثة، بيروت، دار العلم للملائين، ج 1، 1968.
- النجرار (أحمد محتر)، علاقة أمراء الحيرة بعرب شبه الجزيرة كما يصورها الشعر، القاهرة، دار النهضة العربية، 1979.

بالفرنسية.

- BABELON, Jean Impératrices syriennes, Paris, A . Michel, 1959.
- CHATELET, François Histoire des idées politiques, Paris, P.U.F, 1982.
- CHOURAQUI, André Histoire du judaïsme, Paris, P.U.F, 1968.

RONDOT Pierre	Les chretiens d'orient, Paris, J. Peyronnet et Cie, 1955.	CHRISTENSEN , Arthur	L'Iran sous les sassanides, Copenague, Levin et Munskgaard, Enjar Munskgaard, 1939.
TUBIANA J. et autres	Mer rouge, Afrique Orientale, Paris, J. Peyronnet, 1959.	DIEHL , Charles	L'Afrique Byzantine, Histoire de la domination byzantine en Afrique (553-709) vol. 1, New York, B. Franklin, sd.
WATT Montgomery	Mahomet et la Mecque, Paris, Payot, 1958. Mahomet à Medine, Paris, Payot, 1959.	CASTELLAN Georges	Histoire des Balkans (XIV-XX siècles) Paris, Fayard, 1992.
		DRIOTON Etienne et VANDIER Jacques	L'Egypte des origines à la conquête d'Alexandre, Paris, P/U/F, 7ème éd.. 1989.
		ENGEL , Jean-Marie	L'Empire romain, Paris, P.U.F, 1980.
		FURON Raymnd	L'Iran, Perse, Afgahanistan, Paris, Payot, 1951.
		GAUDFROY- DEMOMBYNES et autres	L'Islam et la politique contemporaine, Paris, F. Alkan, 1929.
		HAVENITH Alfred	Les arabes chretiens nomades au temps de Mohamad, Louvain La Neuve, C.H.R, 1988.
		LAROUI , Abdallah	Histoire du maghreb. Un essai de synthèse 2 tomes, Paris, Petite collection Maspero, t.1, 1976.
		LEBON Gustave	La civilisation des arabes, Syracus, Imag, 1959.
		LEMERLE , Paul	Histoire de Byzance, Paris, P.U.F, 1956.
		RICHE Pierre et LEMAITRE Philippe	Les invasions barbares, Paris, P.U.F, 1983.

the model to small groups of students in
order to test its validity.

Small groups of students were asked to work in pairs to

work out their own ways of solving the problem. They were asked to

choose one method and then to explain it to the other members of the group.

Students were asked to work in pairs to

work out their own ways of solving the problem. They were asked to

choose one method and then to explain it to the other members of the group.

Students were asked to work in pairs to

work out their own ways of solving the problem. They were asked to

choose one method and then to explain it to the other members of the group.

Students were asked to work in pairs to

work out their own ways of solving the problem. They were asked to

choose one method and then to explain it to the other members of the group.

Students were asked to work in pairs to

work out their own ways of solving the problem. They were asked to

يتناول هذا الكتاب تطور وضع العرب من القرن الثالث الميلادي إلى قيام الدولة العربية الإسلامية...

لقد كانت الدول الساسانية والرومانية والحبشية، وإن بدرجات متفاوتة، هي القوى العظمى طيلة هذه الفترة... غير أن الحروب المتواصلة بين الساسانيين والرومانيين ثم البيزنطيين انتهت في القرن السابع إلى حالة تزيف ذهب يقوى القوتين العظميين جمِيعاً ورافق هذا التزيف حيرة عقدية رشحهما إلى ما يشبه النزع الأخير في حين شهد العرب في ذات الوقت ولادة وحدة قومية دينية مكتنهم من ملء هذا الفراغ العالمي فأسسوا لهم دولة عربية إسلامية دامت ثلاثة قرون...

محمد الناصر النفراوي

فارس بيزنطة ولجزيره العربيه من القرن الثالث إلى القرن السابع



محمد الناصر النفراوي
أستاذ مساعد بكلية الآداب و أفريل بتونس ..
صدر له:
- رواية "المتشابهون" ، دار الحوار (سوريا 1987).
- "محمد كرد علي، المثقف و قضية الولاء السياسي" ، دار الجنوب (تونس 1993) .

السعر 3.200 دت

ISBN: 9973-703-46-4

دار الجند للنشر - قرمدش